
تشارلز ديكنز
أوليفر تويست
رواية



١

كانت مدنُ إنجلترا وقُراها على عهد قصّتنا هذه ، تَزْهى بما قام فيها من ملاجئ البر والإحسان ، فنى ملجأ من تلك الملاجئ ، ولد ذاتَ يوم وليدٌ جديدٌ مجهولُ الأب ، وشاء القدَرُ أن تلفظ أمه أنفاسها بعد مولده بدقائقَ معدودات ، فلم يُعرَف إلى أية طبقة من طبقات المجتمع ينتسبُ هذا المولود الجديد، أهو ابن عظيم من العظماء ، أم ابن متسوِّل من المتسوِّلين ؟ فتبنَّته إدارة الملجأ ، وأطلقت عليه اسم « أوليڤر تويست » وعهدتْ فى تنشئته وتربيته إلى دار من دُور رعاية الطفل ، ريثما يكبر ويترعرع فتستعيده إليها ، وتستخدمه فى بعض الأعمال . فقد كان من أنظمة تلك الملاجئ الخيرية ، أن توفر المأوى والغذاء لمن يلتجئ إليها

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

أو تتبناه ، على أن ينهضَ بما تفرضه عليه من عمل وخدمة ، ولن يشذَّ بطلُ قصتنا هذه عن ذلك النظام ، فسوف يعود بعد سنوات إلى الملجأ الذى ولِدَ فيه ، ليقوم بالعمل الذى يُطلب منه ، لقاء ما يقتاتُ به من كُسَيْرات الخبز أو فُتات الطعام .

هبط « أوليفر تويست » إلى هذه الدنيا وهو يبكى ويصيح ، ولو عرفَ فى ساعة مولده أنه جاء إلى هذا العالم يتيمًا فقيراً ، وأنه سيعيش فيه فريسةً للعذاب والجوع ، وعرْضةً للتَّهْر والضرب ، يزدريه الناس ، ويضنّون عليه بالعطف والحنان — لو عرَفَ فى ساعة مولده ذلك كله لزاد من بكائه وصياحه . . .

ولمَّا بلغ التاسعة من عمره ، كان سوءُ التغذية فى الدار التى نشأ فيها ، قد جعل منه طفلاً هزيلاً شاحبَ اللون قصير القامة ، ولكن الطبيعة أو لعلها قوانين الوراثة كانت قد عوّضته عن ذلك ، وحبَتْه بفكرٍ نيِّر ، وذهن ثاقب ، وسريرة مستقيمة .

واتَّفق فى اليوم الذى تخطى فيه عتبة السنة التاسعة من عمره ، أن كان هو ورفيقان له محبوسين فى القبو الذى يخزَن فيه الفحم والحطبْ فى تلك الدار ، نزلوا إليه بعد أن أشبعتهم مديرة الدار ضربًا وركْلاً ، وكل جريرة هؤلاء الصّبية الصّغار أنهم جرؤوا على الشكوى من الجوع الذى يقرصُ بطونَهم .

وبيْنما قَبَعَ هؤلاء الثلاثة فى حَبْسهم المظلم ، أقبل موظف من موظفى الملجأ يزور الدار زيارة مفاجئة ، وكان مجلس إدارة الملجأ قد ناط به تفقُّدَ الصِّبْية ورعايةَ شؤونهم . ولشد ما ارتبكت مديرةُ الدار من تلك الزوْرة الطارئة ، فأمرت على الفور إحدى مساعداتها بإطلاق سراح الأطفال الثلاثة ، وتنظيف ملابسهم ، ثم خفَّتْ إلى استقبال الزائر متصنِّعةً السرور بلقائه ، فابتدرته قائلة :

— « أهلاً وسهلاً بالزائر الكريم ! » ثم سألته متظرفة :

— « ألك يا سيدى بكأسٍ من نبيذ ؟ إن العرق يتصبَّب من جبينك ، فلا بدّ أنك قادمٌ من مكان بعيد . . . ولعلك لا تدهش يا سيدى من وجود قليل من النبيذ فى دارنا ، فإنى أضع منه قدْرَ ملعقة أو ملعقتين فى الحساء الذى أقدّمه لأعزائى الصِّبْية الثلاثة ، عندما يكونون مصابين بالبرد أو بشىء من اعتلال المزاج » .

فشكرها الزائر واعتذر عن الشراب وقال :

— « إن الطفل الذى أطلقنا عليه اسم " أوليفر تويست " قد بلغ اليومَ التاسعة من عمره . . . ولقد ذهبت مساعى المجلس أدراجَ الرياح فى معرفة اسم والديه وبيئتهما ، مع أنَّنا رفعنا قدر المكافأة عن ذلك إلى خمسة عشر جنيهًا . . . » فقالت المديرة :

— « لا أكتمك يا سيدى أنى أحبّ هذا الصبىَّ حبًّا جمًّا ، كما لو كان

ابنًا من لحمى ودمى » . فأثنى الموظف على عاطفتها الرقيقة وحنانها ثم قال :

— « تعلمين ياسيدتى أن " أوليفر " قد بلغ من العمر حدًّا لا يُسْمَح له فيه بالبقاء فى هذه الدار ، ولقد قرّر مجلس إدارة الملجأ أن يستعيد الطفل ، ويضمّه إلى خدَم الملجأ ، وها أنا ذا قد جئت أنفّذ قرار المجلس فعلّى بالطفل فى الحال ! » فنهضت المديرة وخرجت من الحجرة وهى تقول :

— « سمعًا وطاعة يا سيدى . سآتيك به فى الحال ! »

وغابت المديرة لحظات ، ثم عادت ممسكة بيد « أوليفر » بعد أن أصلحتْ قليلاً من هندامه ، فلما توسطت وإياه الحجرة قالت له :

— « حَيِّ يا " أوليفر " السيد " بمبل " » .

فحيّاه الطفل تحيةً طيبة فقال له هذا :

— « أريد أن تصحبنى يا " أوليفر " » فقال الطفل :

— « أتسمح لى بذلك سيدتى المديرة ؟ » فقال « بمبل » :

— « لا أظنها تمانع فى رحيلك معى يا " أوليفر " ، ثم إنها تستطيع أن تزورك حينًا بعد آخر » .

وتضاربت عواملُ الانفعال فى قلب الطفل الصغير ، فقد سرّه أن يُنقذه الرجل من هذا الجحيم الذى يعيش فيه ، ولكنه وهو الطفل الصغير ، كان أعجز من أن يتصنع الكآبة ، فتذكر الضربات التى تلقاها من

المديرة قبل أن تحبسه فى قبو الفحم والحطب ، فانهالتْ عبراته وأخذ يبكى وينتحب ، فطيّبت المديرة خاطره ، وأوسعته قُبَلاً ، ثم جاءته ببعض الحلوى حتى لا يصل إلى الملجأ وهو يتضوّر من الجوع . وسار الموظف بعد قليل بالطفل ، وخرجا معًا من تلك الدار التى قضى فيها « أوليفر » تسع سنوات مملوءة بالبؤس والحرمان ، ولم يأسف إلا على فراق صديقيه الطفلين اللذين ربطته بهما أواصرُ الشقاء .

وصل « بمبل » بالطفل إلى الملجأ ، وسلمه إلى بعض العاملات فيه ، وعاد بعد ربع ساعة يقول للطفل إن مجلس إدارة الملجأ منعقد ، وقد بعثنى أدعوك إليه ، فحار الطفلُ فى أمره ، ولم يستطع عقله الصغير أن يفهم معنى « مجلس الإدارة » وما ينطوى عليه ، فتوقّعَ أن يناله منه الأذى والضرّ ، فملأ الخوف صدره واستسلم للبكاء .

على أن الموظف لم يترك له فرصة طويلة للبكاء والعويل ، فنَقَره بعصاه على أمّ رأسه نقرات خفيفة ، أعادت إليه رشده ، وأمره بأن يتبعه ، فوصلا بعد قليل إلى حجرة واسعة رأى الطفل فيها عشرة أشخاص ضخام قد جلسوا حول منضدة طويلة ، يتوسطهم رجلٌ أضخمُ منهم جميعًا ، مستدير الوجه ، منتفخ الأوداج ، قد جلس على مقعد أعلى من بقية المقاعد التى جلس عليها هؤلاء الرجال .

وبينما كان « أوليفر » يمسح عبراته ، سأله رئيس الجماعة :



ـ « ما اسمك أيها الصغير ؟ »

فسكت الطفل ولم يجب ، فإن منظر هؤلاء الرجال العشرة ، قد أثار فى نفسه الرعب وكم فمه ، فكال له الموظف الواقف خلفه بضع ضربات بعصاهُ على ظهره ، فازداد الطفل خوفاً ، وأجهش بالبكاء ، فقال رجل من الرجال العشرة وكان يلبس صداراً أبيض :

ـ « إنه طفل بليدٌ أبله » . فقاطعه رئيس الجماعة وقال :

ـ « أنت تعلم أيها الصغير أنْ لا أبَ لك ولا أمّ ، وأن هذا الملجأ قد عُنِىَ بتربيتك ؟ » فقال « أوليڤر » وهو يبكى بكاءً مُرّاً :

ـ « نعم يا سيدى » ! فقال الرجل ذو الصدار الأبيض :

ـ « ولماذا تبكى إذن . . . غريبٌ يا ناس شأن هذا الطفل . . . ما الذى يُبكيه ؟ ! » فقال الرئيس :

ـ « أعدناك إلى الملجأ أيها الصغير ، لتستكمل تربيتك وعلومك ، ولتتعلم مهنة تنفعك فى الحياة » . فقال الرجل ذو الصدار الأبيض :

ـ « فى الساعة السادسة من صباح غد تبدأ بتقشير البطاطس ... »

وختم المجلس أقواله مع الطفل على هذا النحو ، ثم خرج الموظف بالطفل ، واستودعه رجالَ الملجأ ، فقادوه إلى غرفة النوم الفسيحة ، فارتمى على سرير غليظ فيها ، واستغرق فى نوم عميق .

وصحا فى صباح اليوم التالى ، فانضمّ إلى رفاقه فى الملجأ ، وبدأ يعمل

معهم فى جد ونشاط ، وقضى على هذه الوتيرة نحواً من ثلاثة أشهر ، ناهضًا بما يُطيق ولا يطيق من الأعمال ، متغذّياً بأقل من القليل من الخبز والحساء . فما كانت حاله فى الملجأ بأحسن منها فى الدار التى تركها.

وفى مساء يوم من الأيام ، بلغ الجوعُ مبلغه من « أوليفر » ورفقائه الصغار ، فاتفقوا فيما بينهم على أن يختاروا واحداً منهم ليطلبَ من الطباخ مزيداً من الحساء ، حينما يجمعهم فى غرفة الطعام ، ويوزع عليهم نصيبهم من ذلك القوت الذى لا يروى ولا يُشبع ؛ فوقعت القرعة على « أوليفر » فنهض يقدمُ رجلاً ويؤخر أخرى ، وحمل قصْعته بيده ، وذهب إلى الطباخ وقال له وهو يرتجفُ من الخوف :

— « سيدى ! هل لك أن تمنّ علىّ بقدْر آخر من الحساء ؟ »

فكاد الطبّاخ يغمى عليه من الدهش والاستغراب ، وعدّ هذا الطلب من الطفل الصغير جرأة ما بعدها جرأة ، حتى إذا ثاب إليه رشده انطلق على بدانته وغلاظة جسمه ، يخبر موظف الملجأ بذلك الحدَث العظيم ، فخفّ « بمبل » وهو لايقلّ عنه دهشة واستغرابًا إلى مجلس الإدارة ، وكان منعقداً يصرّف شئون الملجأ ، فدخل على أعضائه بلا استئذانْ وصاح يخاطب الرئيس :

— « سيدى ! إن الطفل "أوليفر" قد طلب المزيد من الطعام ! »

فارتسمتْ على وجوه أعضاء المجلس عند سماعهم هذا النبأ ، أمارات

الدهش والاحتقار ، فقال الرئيس يخاطب الموظف « بمبل » :

— « أطلبَ مزيداً من الطعام ، بعد أن أكل النصيب المقرّر وفقًا للوائح المجلس ؟ » فقال « بمبل » :

— « نعم يا سيدى ! » فقال الرجل ذو الصدار الأبيض :

— « ستكون خاتمة هذا الطفل حبلَ المشنقة . . . أجل ستكون خاتمته حَبْلَ المشنقة . . . . »

وتداول المجلس فى الأمر ، فقرّر أوّلاً حبس الطفل « أوليفر » فى قبو الملجأ ، وقرّر ثانيًا إصدار إعلان يعلق على باب الملجأ ، ويُذكر فيه أن الملجأ يمنح مكافأة قدرُها خمسة جنيهات لمن يعفى إدارة الملجأ من الطفل « أوليفر تويست » ويتكفل بمأواه وغذائه ، ويكون من حقه أن يلحقه لديه بأى عمل من الأعمال .

وُنفّذ قرار المجلس فزُجّ « أوليفر تويست » فى القبو المظلم ، وعُلق على باب الملجأ الإعلان الذى أراده مجلس الإدارة ، وانقضت أيام تسعة ، فلم يتقدّم أحدٌ لإعفاء الملجأ من ذلك الصبى النّهِم الأكول .

وفى اليوم العاشر ، جاء إلى الملجأ رجلٌ طويلُ القامة ، نحيف البنية قويها ، مفتول العضلات ، عابسُ الوجه ، وكانت صناعة الرجل دفنَ الموتى وصُنعَ التوابيت ، فاستقبله موظف الملجأ ، وتبادل وإياه التحية ، ثم خاضا معًا فى الحديث عن الصبىّ « أوليفر تويست » فقبل

الرجل أن يتكفَّل به ، ولكنه اشترط أن يُعيده إلى الملجأ ، إذا بدا له أن العمل الذى يقوم به لديه ، لا يتكافأ وما سينفقه عليه من كساء وغذاء

وتمَّت الصَّفقة بين الرجلين ، ونهض صانعُ التوابيت مستأذناً فى الانصراف ، فودّعه الموظف حتى الباب الخارجى للملجأ ، ووعده بأن يعرض طلبه على مجلس الإدارة ، فإذا وافق على ما اشترط ، ولا يخالُه إلاّ موافقاً . فسوف يأتيه هو نفسه بالغلام فى مساء ذلك اليوم

وعلم « أوليڤر تويست» بمصيره ، فلم ينبس ببنت شفة، فحمل صرَّة ملابسه وكانت أخفّ من الظل ، وخرج من الملجأ فى صحبة الموظف إلى مكان جديد من أمكنة العـذاب

وقُبيْل أن يبلغا حانوتَ الرجل ، شاء الموظف أن يلقى نظرةً أخيرة على الغلام . ويتفقد ملابسه وهندامه فقال له :

— " أوليڤر " فقال الغلام بصوت ضعيف مرتجف :

— « نعم يا سيدى ! » فقال « بمبل » :

— « لا تُنْزِل قبعتك حتى عينيك ، وارفعْ رأسك قليلاً »

فأطاع الغلام قائده ، وأمَرّ كفه على عينيه ليمسح عبرةً سخينة ، ولكن عِقْدَ الدمع انفرط من مآقيه ، فأخذ ينشج ويبكى ، وهو يحاول عبثاً أن يتجلّد ويصبر على بلواه ، فحدجه « بمبل » بنظرة قاسية وقال له:

— « ما رأيتُ ولداً أشد إنكاراً منك للجميل ... إنك ...» فقاطعه

الغلام قائلاً وهو يمسح عَبَراته :

— « لا. لا يا سيدى... سأكون ولداً طيّعاً ... رحماك يا سيدى ... إنى طفل صغير قد نبذنى جميع الناس ، فليس مَنْ يرحمنى أو يعطف علىّ . . . فناشدتك الله يا سيدى لا تغضب علىّ ! »

فأثّر كلامُ الغلام فى قلب « بمبل » فتلطف فى الكلام معه ، وربت على كتفيه ، ثم أمسك بيده وخطا به الخطوات القليلة الباقية دون حانوت صانع التوابيت . وكان قد أغلق حانوته نصفَ إغلاق ، وجلس يراجعُ أوراقه ، فدخل عليه « بمبل » ومعه « أوليڤر » فحياه وقال :

— « ها أنا ذا قد جئتك بالغلام » .

فرفع الرجل الشّمعدان الذى أمامه ، وعلا به فوق رأسه ليلقى نظرةً صحيحة على الغلام القادم إليه ، ثم نادى زوجته من داخل الحانوت ، فأقبلتْ مسرعةً فلما رأت الغلام قالت :

— « لله ما أضعفه وأشدّ هزاله ! » وفتحت المرأة بعد هذا الكلام باباً فى آخر الحانوت ، ودفعت الطفل إلى سلم ضيق ينزل منه إلى قبو صغير رطب ، كانت المرأة قد جعلته مطبخاً تطهو فيه الطعام ، ثم نادت بأعلى صوتها خادمة لها تدعى « شرلوت » وقالت لها :

— « " شرلوت " ! قدّمى لهذا الغلام فضلات طعام الظُّهر ، ثم ارجعيه إلينا » . فتلقفته الخادمة ، وقدّمت له نصيباً وافراً من الطعام ، فنسى الغلام

كل همومه ، وانكب على اللحم المطبوخ يزدرده بشهوة لا مزيد عليها ، فقلما كان قد ظفرَ حتى ذلك اليوم بوليمة كهذه الوليمة . وخرج بعد ذلك من القبو ، وكان الموظف قد انصرف ، فقالت له ربّة الحانوت :

— « إن فراشك فى صدر الحانوت ، فلا إخالك تخافُ من النوْم بين التوابيت ، وسواء خفتَ أم لم تخفْ ، فليس لدينا موضع آخر ترقد فيه » .

وانصرف الرجل وزوجته والخادمة تاركين « أوليفر » المسكين فى ذلك المكان الرهيب الذى يأنفُ ويفزعُ أن ينام فيه الرجال الشجعان بَله الأطفال الصغار .

وبقى الغلامُ قليلاً فريسة الهواجس والمخاوف ، تتراءى له الأشباح على ضوء الشمعة المتراقص ، ويخيلُ إليه أن التوابيت الموجودة فى الحانوت ، قد ارتمت عنها أغطيتها ، وخرجت منها جثث الموتى بوجوهها الشاحبة ، وأيديها المعروقة ، فلم يتمالك عن الصياح رُعباً وفزَعاً ، وردّ الصدى على صياحه فزاده فزعاً ، وكاد يُفقِده الصواب . وتحامل الغلامُ على نفسه ، وأهاب بشجاعته ، فمضى إلى الشمعة فأطفأها ، وغطى عينيه براحتيه هرباً من رؤية الأشباح ، ومشى إلى فراشه يتعثر مرةً وينهضُ أخرى .





٢

استيقظ « أوليفر » فى الصباح الباكر ، على صوت ضربات متلاحقة تنقضُّ على باب الحانوت ، فنهض من فراشه ، ومشى توّاً إلى الباب ، فسمع صوتاً يصيح قائلاً :

— « افتح الباب أيها الحقير ! » فقال « أوليفر » :

— « تمهّل قليلاً يا سيّدى فالبابُ مُقْفَل » . فقال الصائح :

— « أعرف ذلك أيها الأبله ، ولكن حسبك أن تشدّ المزلاج فينفتح الباب » . وعمل « أوليفر » بإشارة ذلك القارع الصائح ، فانفتح الباب ، فإذا به يرى فتًى يكبره بعدّة سنوات ويقول له :

— « أأنتَ الغلام الجديد الذى التحق بالعمل فى هذا الحانوت ؟ »

— « نعم يا سيّدى » . فقال الفتى :

— « كم عمرك ؟ » فقال « أوليفر » :

— « عشر سنوات يا سيدى » . فقال الفتى :

— « ستنال قصاصك أيها الدعىّ على تأخرك فى فتح الباب » .

فاعتذر « أوليفر » للفتى وقال له فى دعة وتواضع :

— « لعلك محتاجٌ يا سيدى إلى تابوت من التوابيت ! » فاستشاط الفتى غيظًا ، وعدّ كلام « أوليفر » مزاحًا لا يليق أن يوجهه إليه ، فقال له وهو حانق :

— « إنك ولا شك لاتعرفُ من أنا أيها اليتيمُ الوقح ... أنا " نوح " العامل فى هذا الحانوت ، وأنت مرؤوسى » . وركله برجله ودخل إلى الحانوت ، وأقبلت فى تلك اللحظة الخادمة « شرلوت » ورأت الرفسة التى كالها « نوح » للغلام البائس فنهرته ؛ فقال لها :

— « إن هذا الحقير يتيمٌ لقيط ، فهل تريدين أن نعامله معاملة أبناء الأسر » . فقالت « شرلوت » :

— « إنك فتى غليظُ الكبِد يا " نوح " .. هيًّا هيًّا تعاليا معى إلى المطبخ لأعدّ لكما طعام الفطور »

وقضى « أوليفر » نحواً من شهر فى حانوت صانع التوابيت ، يقوم بما يُفرض عليه من عمل ، ويتحمّل فى صبر عجيب ومضض شديد ،

غلظ الفتى « نوح » وشراسة خُلقه ، وقارصَ ألفاظه .

ونزل ذات يوم « أوليفر » و « نوح » معًا إلى المطبخ فى ساعة الغَداء ، وكان صاحب الحانوت وزوجته والخادمة غائبين عن الحانوت فى تلك الساعة ، فاغتنم « نوح » الفرصة ، وأخذ يتغالظ ويداعب « أوليفر » فى قسوة مثيرة ، فتارةً يشدُّ له شعره ، وطوراً يقرصه من أذنيه ، وحينًا ثالثًا يخطف نصيبه من الخبز واللحم ، وغلامُنا صامت لا يتكلّم ولا يتحرّك ، فلما رأى « نوح » أن مداعبته الثقيلة لم تستفزّ زميله المسكين ، عمدَ إلى طريقةٍ أخرى لا يَعْمدُ إليها إلاّ الأنذال ، عندما يريدون أن يطعنوا محدّثهم ، طعنةً تجرح عزّة نفسه ؛ فقال له :

— « بأىّ داء ماتت أمك ؟» فقال « أوليفر » وكأنه كان يناجى نفسه :

— « لقد قيل لى إنها ماتت يأسًا وغمًّا ، وإنى لأدرك كيف يموتُ الناس من اليأس والغمّ » . ولمح « نوح » عبرةً حرّى تنهمر على خدّ « أوليفر » فغلب عليه الفرح ، وشرع يدندن ويصفر ثم قال :

— « وما الذى يبكيك أيُّها الأحمق ؟ »

— « لا تظنّ أنك أنت الذى يبكينى » . فقال « نوح » ساخراً :

— « من ذا الذى يبكيك إذن ؟ أذكراك لأمّك ؟ »

— « لا . لستَ أنت الذى تبكينى . . . حسبك يا " نوح " وعدِّ عن ذكر أمّى » . فقال « نوح » ممعنًا فى صفاقته :



— « من حسن حظها أنها ماتت فلربما كان مصيرها غياهبَ السجن أو حبلَ المشنقة » .

فاحتُقِن وجه « أوليڤر » عندَ سماعه هذا الكلام ، ونهض عن كرسيّه وانقضّ على « نوح » وأمسكه من عنقه ، وأخذ يهزُّه هزًّا عنيفًا ، ثم صفعه صفعةً شديدةً على وجهه طرحته ممدّداً على الأرض .

أما كيف تحوّل « أوليڤر » الدّمث الأخلاق ، الرقيق الشّمائل ، الوديعُ الفؤاد إلى أسد هصُور يريد أن يفتك بغريمه ، فلا يصعب إدراكه ، فإنّ تقديسه لذكرى أمّه ، وصَوْنَ تلك الذكرى عن مطعن كلّ عابثٍ غامِز ، قد نفخ فى قلبه الصغير روحًا من القوة والشّجاعة غلّبتْه على خصمه . وتطلّع « نوح » إلى « أوليڤر » فلاح له الشرُّ فى عينيه ، فأخذ يزعق ويصيح :

— « الغياث . . . المعونة . . أنقِذُونى من المجرم . . أنقِذُونى من القاتل . . . " شرلوت " ! سيدىْ ! سيدتى ! لقد أصيب " أوليڤر " بالجنون . . . إنه يهمّ بقتلى . . . " شرلوت " . . . . » .

وكانت ربّةُ الحانوت والخادمة « شرلوت » قد عادتا من بعض شأنهما ، فسمعتا الصِّياح ، فهُرِعتا إلى المطبخ ، وهالهما أن تريا « نوحًا » منطرحًا إلى الأرض ، و « أوليڤر » واقفًا له بالمرصاد ، فهجمتا على « أوليڤر » وطوّقتاه بأذْرُعهما أولاً ، ثم كالتا له الضربات الأليمة ، فتشجّع « نوح »

ونهض هو أيضاً يكيل الرفس والركل للغلام الصغير .

وأمرت ربة الحانوت « أوليڤر » بأن يبقى فى المطبخ ، وخرجت هى والخادمة و « نوح » إلى الحانوت ، وأقفلت باب المطبخ ، فما كادت تستريحُ قليلاً حتى قالت :

— « والآن ما العمل يا " شرلوت " ؟ فليس فى الحانوت رجلٌ يحمينا من بطش هذا الغلام . . . وزوجى لن يعود قريباً . . . أندعو رجال الشرطة ؟ » فقالت « شرلوت » :

— « لا أميل إلى دعوة رجال الشُّرْطة ، وإنما أوثر أن ندعو موظف الملجأ الذى جاءنا بهذا الغلام ، فهو كفيل بتأديبه ... ثم ماذا لو انتظرنا سيدى زوجك ليرى رأيه فى هذا الغلام ؟ » فقالت ربة الحانوت :

— « نعمَ المشورةُ مشورتُك ، فنحن الآن آمنُون شر الغُلام ما دامَ محبوساً فى المطبخ ، ولسوف أقترح على زوجى أن يعيده إلى الملجأ الذى جاء منه ، فمحال أن نترك بيننا ولداً شرِّيراً مثله » .

وهبط المساءُ ولم يعدْ صاحبُ الحانوت ، فأغلقت زوجتُه الدُّكّان ، وانصرفت هى و « نوح » والخادمة . وكان « أوليڤر » قد استمعَ إلى حديثهم ، وعرف أنه لن يطلعَ عليه الصَّباحُ حتى يعودَ إلى الملجأ ، ويرجعَ إلى شَظَف العيش والجوع ، فاسودَّت الدنيا فى عينيه بعد أن كانت قد بدأت تبتسم له قليلاً ، وتُوَفِّرُ له رِزقه من خلال التَّوابيت ودَفْنِ الموتى ،

وغَلَبَ عليه الخوف فاستسلم إلى البكاء . وعلى حين فجأة ، دارَ فى خَلَده خاطرٌ ارتاح له ، فمَشَى إلى باب المطبخ ، وطَفِقَ يعالجه حتى انفتح ، ومضى منه إلى حيث يضع ملابسه ، فلفَّها فى صُرَّته المعهودة ، ثم حملَ الصُّرَّة ، وتلمَّس طريقه إلى باب الحانوت ، فشد المزْلاج ، وفتح الباب ، وخرج إلى فضاء الله الواسع ، وقد عزم على مغادرة المدينة إلى حيثُ توصله قدماه ، فراراً من ضرب أهل الحانوت وقسوة رجال الملجأ .

كانت الليلةُ مظلمةً باردة ، ونجومُ السماء مختفية غائرة ، فمشى « أوليڤر » نحو ساعتين مبتعداً ما أمكنه الابتعاد عن الحىِّ الذى عاش فيه مدَّة شهرين على وجه التَّقْريب ، ومرَّ فى سُراه بإحدى الحدائق العامَّة ، فدخلها واستلقى إلى مقعدٍ من مقاعدها الخشبيَّة ، واتَّخذ من صُرَّته وسادةً له ، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يقضى ليلته فى ذلك المقعد ، ويستأنف المسير فى الصباح .

ولم يكد الفجرُ يلوحُ بوجهه الوردىِّ ، حتى نهضَ صاحبُنا الصَّغير من غَفْوته ، فحمل صرَّته وتابع سَيره مخترقاً الأزقة والشَّوارع ، فبلغ بعد ساعات الطريق العام ، فمشى فيه ساعاتٍ أخرى ، ثم أدركه التَّعب والجوع ، فجلس فوق حجرٍ من الأحجارٍ على حافة الطريق ، يتبلَّغُ بكسرة من الخبز كان قد حملها معه ، ولاحتْ له فوق الحجر الجالسِ عليه لافتة تشير إلى أنه على بعد أربعين ميلاً من « لندن » ، فعزم أن

يجعلها خاتمةَ مطافه

وبعد أن استراح قليلاً ، وأسكتَ عصافيرَ بطنه بلُقْمة الخبز ، نهض يجدُّ فى السير بلا مَلَلٍ ولا كلل ، حتى أدركه المساء فعرّج على بعض المزارع ، واستلقى عند كومة من الحشائش ونام نوماً عميقاً .

واستيقظ فى الصباح ، وتابع سيره إلى الوجهة التى تخيّرها ، فوصل بعد قليل إلى مدينةٍ صغيرة ، فدخلها واجتاز شوارعها ودروبها ، وانتهى به المطافُ إلى شارعٍ كبير فيها ، فأخذ يجول فيه ويتفرّج على حوانيته ودكاكينه ، فلمح على الرّصيف الآخر من الشارع غلاماً فى مثل عمره يطيل النظر إليه ويتبعه عن بُعْدٍ ، ثم رآه قد اجتاز عَرْض الشارع ، وجاء إليه وحيّاه وقال :

— « ماذا بك أيها الرّفيق ؟ يلوح لى أنك غريبٌ عن هذه المدينة »

فحملق فيه « أوليڤر » فرآه غُلاماً شنيعَ المنظر قَذِر الثّياب ، قد أمال قبعته إلى أذنه اليمنى حتى لتكادُ تقع ، ووضع يديه فى جيبى سرْواله وهو يَشْمخُ بأنفهِ شأنَ كبار الرّجال ، فردّ « أوليڤر » على تحيته والدمعُ يكاد يطفرُ من عينيه وقال :

— « إنى متعبٌ جائع ، وقد قمتُ برحلة طويلة » . فقال الغلام :

— « لا بأس عليك تعالَ معى . . . »

وقاده الغلام إلى بعض الأزقّة المتفرعة على الشّارع الكبير ، وأدخله

معه مطعماً حقيرَ المظهر ، وطلب له رغيفاً كبيراً من الخبز ، وقطعةً إضافيةً من اللحم المقدّد ، فانكب « أوليڤر » يلتهم اللحم والخبز التهاماً ، فلمّا فرغ من تلك المأدبة الفاخرة . قال له الغلام الغريب :

— « أذاهبٌ أنت إلى " لندن " ؟ » فقال « أوليڤر » :

— « نعم » . فقال الغريب :

— « ألديك فيها مسكنٌ يؤويك ؟ » فقال « أوليڤر » :

— « كلاّ » . فقال الغريب :

— « أتحملُ شيئاً من النقود ؟ » فقال « أوليڤر » :

— « كلاّ » . فقال الغريب :

— « اعتمد علىّ واطمئنّ بالاً . . . فأنا ذاهبٌ إلى "لندن" ، وإنى لأعرفُ فيها شيخاً وقوراً يرضى أن يستضيفك عنده بلا مُقابِل ، إذا قدّمك إليه أحدُ معارفه ، وسأقوم بهذه المهمة . . ولعله بعد أيام قلائل يجد لك عملاً ترتزق منه فتحسن حالُك » .

ومشى الغلامان فى طريقهما إلى « لندن » وكلّما جَدّ « أوليڤر » فى سيره استمهله رفيقه ، وأنهى إليه أنه لا يبغى الوصول إلى « لندن » قبل منتصف الليل ، فكان له ما أراد ، وبلغ الغلامان العاصمة فى الوقت الذى حدّده ذلك الغلام الغريب ، فلحظ « أوليڤر » أن رفيقه يقوده فى أزقة لم يرَ قطُّ أقذرَ منها ، ولا أحقَر من بيوتها ، وأن الزقاق الضيق الذى

وصلا إليه ، يبعث فى النفس الكراهية والخوف ، فقد شاهد فيه على أبواب المنازل رجالاً ونساء ، يتقاذفون بالشتائم وهم سكارى ، فهَمَّ أن يغافل رفيقه ويهرُب من تلك البؤرة ، ولكن سَبَقَ السيف العَذْل ، ففى اللحظة التى كانت تراوده فكرةُ الهرب ، دَفَعَ رفيقه « جاك » بيده اليمنى بابَ أحد المنازل ، وأمسك بيد « أوليڤر » باليُسرى ، وتخطيا معًا عتبة الباب إلى رواقٍ مظلمٍ ، وطفق « جاك » يصفر صفيراً خاصًّا .
ولاح على الأثر شخصٌ يحملُ فى يده مصباحًا ، فأنار الرّواق المفضى إلى سلم المنزل وقال :

— « من هذا الذى فى صُحبتك يا " جاك " ؟ » فقال « جاك » :

— « عضو جديد يا " شرلو " . فقال « شرلو » وكان غلامًا فى مثل عمر « جاك » :

— « من أين قَدِم ؟ » فقال « جاك » :

— « من بلاد السذَّج البلهاء ! هل الشيخ " فاجن " هنا ؟ »

— « أجل . إنه يرتب المناديل . هيَّا أقبِلا » .

وعاد « شرلو » بمصباحه إلى حيث كان ، وصَعدَ « جاك » السلم وهو يقود وراءه « أوليڤر » ، وانتهيا منه إلى غرفة قذرة يضيئها قنديل ضئيل ، وقد جلس فيها إلى مائدة الطعام يهودىٌّ عجوز ، متجعِّدُ الخدين بَشعُ القسمات ، كَثُّ اللحية والشَّعَر .

خاف « أوليڤر » واضطرب ، ولام نفسه على أنه انساق غير عامدٍ إلى تلك البؤرة التى لا تبعث على الارتياح ، وأجال طَرْفه فى أنحاء الغرفة ، فرأى فى صدرها عِدّة أفرشة مُدَّتْ على الأرض فراشًا جَنْبَ فِراش ، ورأى فى إحدى الزوايا مجموعةً من المناديل ، تراكَمَ بعضها فوق بعض ، فذهل وندم ، وانتشله من ذهوله وندمه صوت « جاك » يقول :

— « أقدّم لكما صديقى " أوليڤر تويست " » .

فضحك اليهودى العجوز ضَحِكَ القردَة وقال :

— « يسرّنا أن نراك بيننا يا سيد " أوليڤر " . . . تعال قاسمنا الطعام ، فلا بد أنك جائع . افسَحا للضيف فى المكان . . . »

وأهابَ الجوع بالغلام « أوليڤر » فجلس إلى المائدة وهو لا يعى ما يفعل ، وأخذ يبتلع اللقمة تلو الأخرى . ثم قدم له اليهودى كأسًا من الخمر ، وطلب إليه أن يشربها جرعةً واحدة ففعل . وارتمى بعد قليل إلى فِراشٍ من الأفرشة ، واستغرق فى سُبات عميقٍ .





٣

صحا « أوليفر » فى صباح اليوم التالى من رُقادِه وكانت الضحى قد ضربتْ أطنابها ، فأدار نظراته فى أنحاء الغرفة ، وعيناه شبه مُغمضتَين ، فلم يجد فيها إلا اليهودىّ العجوز ، وقد جلس إلى المائدة ، ووضع عليها فنجاناً كبيراً من القهوة يرشفُ منه ذلك الشراب الأسود جُرْعة بعد جُرْعة.

ورآه بعد قليل قد عمَد إلى الصَّفير والتغنى بكلمات متقطعة ، ثم سمعه يناديه باسمه فلم يجب « أوليفر » النداء ، فالنوم كان لايزال عالقاً بأهدابه ، ولما أيقن العجوز أن « أوليفر » غيرُ صاحٍ ، نهض إلى خزانة محفورة فى قلب الحائط ، ففتحها وأخرج من بعض أدراجها السرية ، عُلبة كبيرة

وركزَهَا إلى المائدة وطَفِق يقلّب محتواها بين أصابعه ، وعيناه تَقدَحان بشَرَرِ الجشَع والحذَر .

وحدّق « أوليفر » من ثنايا جفُونه فى ذلك الذى يقلّبه اليهودىُّ العجوز بيديه ، فإذا هو ساعاتٌ من الذّهَب مختلفةُ الأحجام والأشكال ، وخواتمُ ومشابكُ ، وأسورةٌ من الذّهَب المرصّع بالألماس ، إلى غير ذلك من الحلى والجواهر التى لم تقع عين « أوليفر » عليها قطّ قبل ذلك اليوم .

وتقلّب « أوليفر » فى فراشه ، فاضطرب اليهودىُّ اضطراباً شديداً ، وأعاد الجواهر إلى علبتها بسرعة البرق الخاطف ، ثم وضع العُلْبة فى درجها السرّى من الخزانة ، وأمسك بسكين كبيرة ماضية الشفْرتين ، واستعدّ للدّفاع عن كنزه ، متوقعاً أن يُفتح عليه باب الغرفة ، ويدخل منه اللص الطامع فى ثروته ، ولكنه أدرك فى الحال أن ليس فى الدار غريبٌ مغتصب ، فاستدار إلى « أوليفر » فرآه قد استيقظ وإن لم ينهض من فراشه ، فقال له حانقاً مغضباً :

— « ماذا تريدُ أيها الوَقح ؟ لماذا كنتَ ترقبنى ؟ ماذا رأيت ؟ أجبْ على الفور وإلا فقدتَ الحياة ! » .

فقال « أوليفر » فى دَعَةٍ ورقّة ، بعد أن نهض من فراشه :

— « لم أستطع النوم أكثر مما نمتُ يا سيدى ، وعذراً إذا أنا أزعجتُكَ وأثقلت عليك ! »



فأعاد اليهوديّ العجوز السكّين إلى موضعها ، واستعاد لهجته العادية، وتظاهر أنه إنما كان يعْبَث بالسكين ليس إلا . . . فاقترب من « أوليڤر » وقال له :

– « إنما أردتُ أن أخيفك يا عزيزى ، فإذا بك فتى شجاع يا " أوليڤر " ولكن قل لى : أرأيت شيئًا مما تحويه العلبة؟ » فقال « أوليڤر » :

– « نعم يا سيدى » .

فاصفرّ وجه اليهوديّ العجوز وصمت قليلاً ثم قال :

– « إنها ثروتى . . . إنها الثروة التى سأعتمد عليها عندما أطعن فى السنّ ، وأبلغ من الكبر عتيًّا . . . يقولون إنى شحيح بخيل ولكن مُكْرَه أخاك لا بَطَل » .

وسُمع عندئذ وَقْعُ أقدام على السلّم ، وما هى إلا لحظات حتى دخل الغرفة الغلامان « جاك » و « شرلو » فدعاهما اليهودى العجوز لتناول طعام الإفطار ، وقبل أن يجلس القادمان إلى المائدة قال لهما العجوز :

– « لعلّكما ذهبتما إلى العمل وعُدْتما منه بصيدثمين ! » فقال «جاك» :

– « عدت بمحفظتين منتفختين بأوراق النقد وهاكهما » .

– « إنك بطل عظيم يا " جاك " ، وأنت يا " شرلو " بماذا عدت ؟ »

فقال « شرلو » :

– « بمجموعة من المناديل الثمينة » . وأخرجها من جيوبه .

— « نعماً أيها العامل النشيط » . وأدار العجوز نظره إلى المناديل ثم قال :

— « إنها كلها مطرّزة بأسماء من كان يحملها . . . يجب نزعُ تلك الأسماء بإبرة رفيعة ، وسنعلّم " أوليفر " كيف يقوم بهذا العمل » .

وجلسوا جميعاً يتناولون طعام الإفطار ، ولما فرغوا منه شهد « أوليفر » اليهودى العجوز والغلامين يقومون معاً بحركات غريبة مضحكة ، فقد رأى العجوزَ يضع علبةً من علب لفافات الدُّخان فى أحد جيوب سرواله ، ويضع محفظةً فى جيبٍ آخر ، ثم رآه يضع فى جيب صداره ساعةً مربوطة بسلسلة ، ولا تسَلْ عن دهشة « أوليفر » عندما شاهد العجوز قد اعتمد على عصاً ، وأخذ يجولُ متسكّعاً فى جوانب الغرفة ، كما يتسكع الناس الذين يمشون فى الشّوارع ، ولا عمل لهم إلا الفرجة والتنزّه ، فتارةً كان يقفُ أمام الموقد ، وتارةً أخرى أمام الباب ، يجيل نظره فيه كأنه واجهةُ حانوتٍ من الحوانيت ، وطوراً ثالثاً كان يتفقد جيوبه كمن يخشى اللصوص والنشّالين ، وكانت حركاته تلك من الغرابة بحيثُ أضحكت « أوليفر » وكاد يستلقى على قفاه من شدة الضّحك . وكان الغلامان يتبعانه عن كثَب ، وكانا كلّما التفت العجوز إلى الوراء تواريا عن نظره بخفّة ورشاقة ، حتى تقدّم أحد الغلامين منه ، وداسَ على رجله ، فى حين صدمه الآخر من الخلف ، وبأسرع من تردُّد الطرف كان العجوز قد فقد كل ما فى جيوبه : من علبة الدُّخان والمحفظة والساعة ، حتى المنديل

وعلبة النظارة ، وكرّر هؤلاء الثلاثة هذه المسرحية مثنى وثلاثَ ورُباع و « أوليفر » تتنازعه من ذلك المنظر عوامل الضّحك والدّهَش .

وبينا هم على هذه الحال ، وفدت عليهم فتاتان فى مقتبل العمر ، تدعى إحداهما « بتسى » والأخرى « نانسى » فأكلتا وشربتا ثم زودهما اليهودى العجوز ببعض المال ، فانصرفتا ومعهما الغلام « جاك » فالتفت العجوز إلى « أوليفر » وقال له :

— « لقد ذهبوا يتنزّهون ويمرَحون » . فقال « أوليفر » :

— « أفرَغوا يا سيدى من عملهم فى هذا اليوم ؟ » فقال العجوز :

— « أجل . ولكن إذا عرَضَ لهم فى أثناء مرحهم عملٌ جديد ، فلن يتوانَوْا عن القيام به » . فلم يفهم الغلام المسكين شيئاً من هذه الأحاجى ثم سمع العجوز يقول له :

— « تعال أعلّمك كيف تنزع الأسماء من المناديل . . وخُذْ هذا الشلن جزاءً مقدّماً على عملك . » فأذعَنَ الغلام لأمر العجوز وانكبّ على عمله بهمة ونشاط ، ولم يخامره أى شكّ من الشكوك . . . وبقى « أوليفر » عدة أيام لا يغادر المنزل ، أو لا يُسْمَحُ له بمغادرة المنزل ، حتى ضاق صدره واشتاق إلى الحرية والفضاء الواسع ، وكان اليهودى العجوز قد عهِدَ إليه فى نزع الأسماء من كمية كبيرة من المناديل ، لم يدْرِ « أوليفر » من أين تهبط عليهم ، وكان قد أشركه أيضاً فى اللعبة

التى يلعبونها فى صباح كل يوم ، فتوسّم فيه الخير ، وقَدَرَهُ قَدْرَهُ من الذكاء والمهارة .

وسمح العجوز ذات يوم للغلام « أوليفر » بالخروج فى صحبة « جاك » و « شرلو » فسُرَّ سروراً لا مزيدَ عليه ، وعللَ النفس بأن يذهبا به إلى عملٍ يعمله وهو حرٌّ طليق ، ويكسب منه رزقه الشريف .

وخرج « أوليفر » من المنزل يحيط به « جاك » و « شرلو » فسارا به من شارعٍ إلى شارع ، ومن زقاقٍ إلى زقاق ، وهو لا يدرى إلى أين ينتهى بهم المطاف ، ولقد كاد « أوليفر » يترك رفيقيه ، على ما به من شوقٍ إلى الحرية ، والتمتّع برؤية الناس والدكاكين والمنازل ، ويعود إلى المنزل فراراً مما يقومان به من أعمال دنيئة ، لا ترضى بها النفس الشريفة ، فقد رآهما لا يمرّان ببائع ثمار ، أو دكان بدّال ، إلا نشلا بعض الثمار أو بعض الأطعمة وملآ بها جيوبهما . وبينما هو يفكر فى أمره وأمرهما إذ سمع « جاك » يرقص طرباً فى الشارع ويقول مخاطباً « أوليفر » :

— « أترى ذلك الرجل الواقف تجاه تلك المكتبة على الرصيف المقابل من الشارع ؟ » فقال « أوليفر » :

— « نعم أراه » . فقال « جاك » :

— « إننا سنداعبه مداعبةً لطيفة ! » ، وعقب « شرلو » :

— « إنه صيد ثمين ! »

فلم يفهم « أوليفر » من هذا الحديث شيئاً ، وقبل أن يستوضح رفيقيه

معنى كلامهما ، رآهما اجتازا عرض الشارع ، وذهبا يقفان وراء ذلك الرجل الذى أشارا إليه ، وكان قد تناول كتاباً من الكتب المعروضة فى واجهة المكتبة المكشوفة ، وشرع يطالعه بشغفٍ ومتعة ، فلحق « أوليفر » برفيقيه حتى كاد يقترب منهما ، ولكنه وقف جامداً فى مكانه لا يَريمُ منه ولا يتحرك ، ذلك أنه وقعت عينه على ما فعلا ، فاشمأزت نفسه أيّما اشمئزاز .

رأى « جاك » يمدّ يده إلى جيب الرجل ، ويسحبُ منه حافظة نقوده ، ويرمى بها إلى « شرلو » ثم يتوارى اللصان فى منعطف من المنعطفات ويطلقا سيقانهما للريح ، فانكشف فى تلك اللحظة لغلامنا المسكين سِرُّ تلك العلبة ، وما حوت من ساعات وخواتمَ وجواهرَ ، بل انجلى لعينيه سرُّ الحياة التى يحياها ذلك اليهودى العجوز وأعوانه من الصبية والفتيات ، فوقف مسمَّراً فى موضعه ، وهو أشد ما يكون ذهولاً وتقززاً واحتقاراً ، فأطلق هو أيضاً ساقيه للريح ، دون أن يعىَ ما يفعل ، وشاء القدر أن يتفقّد الرجل محفظته فى تلك اللحظة فلا يجدها ، وأن يرى « أوليفر » يجرى بمنتهى قوته ، فوثق بأنه السارق فجرى خلفه والكتاب فى يده وهو يصيح : « اللص . أدركوا اللص . اقبضوا على اللص » . فركض كل من سمع نداء الاستغاثة ، وما هى إلا دقائق قليلة حتى أدرك الراكضون « أوليفر » وقبضوا عليه .

ولَحِقَ الرجلُ المجنىُّ عليه بجماعة الراكضين ، وأخذته الشفقة بذلك

الغلام البهيّ الطَّلْعة ، البريء النظرات ، المرتجف من الخوف ، فَهمّ أن يطرح عليه بعض الأسئلة ، ولكن شرطيّ الحيّ كان أسبقَ منه إليه ، فأمسك بتلابيب « أوليفر » يريد أن يسوقه إلى مخفر الشرطة ، فتطلع إليه « أوليفر » خائفًا متوسلاً وقال :

— « لست أنا يا سيدى . . . إنهما غلامان آخران . . . صدقْنى يا سيدى . . . لابدّ أن يكونا غير بعيدين من هنا » . فلم يَحفِل الشرطى بكلام « أوليفر » البرىء ، وساقه إلى المخفر ، ومشى معه الرجل صاحب المحفظة المسروقة ، ومشى وراءهم نَفَرٌ من أصحاب الفضول ، فلما وصلوا إلى المخفر ، تلقاهم رئيس الشرطة وقال متسائلاً :

— « ماذا حدث ؟ » فقال الشرطى وهو يشير إلى « أوليفر » :

— « نشّالٌ صغير قبضتُ عليه يا سيدى الرئيس ! فقد نشل محفظة نقود هذا السيد » . فقال الرجل يخاطب رئيس الشرطة :

— « على أنى لا أقْطَع بأنه هو السارق يا سيدى الرئيس ، ولعله من المستحسن حفظ الموضوع حتى لا نظلم هذا الغلام إذا كان بريئًا ، وعوضى على الله عما فقدتُ من نقود » . فقال رئيس الشرطة :

— « لا يغرنّك يا سيدى هذه البراءة والسذاجة التى يتظاهر بها هذا الغلام ، فالعدل يجب أن يجرى مجراه » . ثم أمر رئيس الشرطة بأن يُساق

الغلام إلى قاضى التحقيق ، وطلب من الرجل المجنى عليه أن يذهب هو أيضًا إلى قاضى التحقيق ليُدْلى بأقواله كشاهدٍ فى الحادث ، فمضى هؤلاء جميعًا إلى القاضى ، ووجه إليهم الأسئلة اللازمة ، ومال إلى كاتب الجلسة وطلب إليه أن يُعِدّ نصّ حكم على الغلام بحبسه ثلاثة أشهر مع الشغل ، فأعَدّ كاتب الجلسة الحكمَ المطلوب . وهمّ بالنطق به ، ولكن حال دون ذلك دخول رجلٍ مُهرْولٍ إلى قاعة الجلسة وهو يصيح بأعلى صوته :

— « على رِسلكُم يا قوم ! فهذا الغلام ليس السارق ! »

فتطلّع إليه قاضى التحقيق مدهوشًا من تدخُّل هذا الغريب ، فقطع عليه الرجل دهشته حين قال :

— « أنا صاحبُ المكتبة التى كان السيد واقفًا إلى واجهتها ، يقلب فيما أمامه من كتب ، فرأيت ثلاثة غلمان ، ومنهم هذا الغلام يتسكّعون على الرصيف المقابل لمكتبتى ، ثم رأيت اثنين منهم غير هذا الغلام يقتربان من السيد الذى كان مشغولاً بالقراءة ، وينشل واحدٌ منهما محفظة نقوده ، ويرمى بها إلى زميله ، وبعد ذلك طار الغلامان وتواريا عن الأنظار ، ورأيت كذلك الدهشة التى ارتسمت على وجه هذا الغلام الذى قبضتم عليه » . فقال له القاضى :

— « ولماذا تأخرتَ فى المجىء والإدْلاء بأقوالك ؟ »

— « لم أجدْ أحداً أكِلُ إليه حراسة المكتبة ، فجميع الناس كانوا

قد جروا وراء السارق ، وحالما عثرتُ على أحد يقوم بتلك الحراسة ، هُرِعتُ إليك يا سيدى القاضى » .

وصمت القاضى برهة ثم نطق ببراءة الغلام ، فخرج الناس من قاعة الجلسة . وما كاد « أوليفر » يغادر القاعة إلى صَحن البناء ، حتى سقط مغشيًا عليه ، فسارع إليه صاحب المحفظة المفقودة يُقيلُه من سقطته ، فرآه فاقدَ الوَعْى فطلب قليلاً من الماء ، فرشَّه به على وجهه حتى استفاق ولما تفرّس الرجل فى وجه « أوليفر » مليًّا قال فى نفسه :

— « ربّاه إن هذا الوجه غيرُ غريب علىّ ، فأين رأيتُهُ قبل اليوم ؟ »

وبدأ الرجل يستعرض فى ذهنه وجوه من عرف ويعرف من الناس ، وله شىء من الشبه مع وجه الغلام ، فلم يتوصّل إلى العثور فى لوح خياله على الشبيه ، ثم ضيّقَ حَلْقة التشبيه ، وكاد يرى فى وجه الغلام وجه شخصٍ كان فيما مضى حبيبًا إلى فؤاده ، ولكنه طرد هذه الفكرة من مخيّلته ، وعاد يعتنى بالغلام ، فأنهضه وحمله إلى مركبة من مركبات الأجرة ، وسار به إلى منزله . وهناك أمر مدبّرة المنزل بإعداد سرير للغلام ، فوُضِع فيه وراح فى غيبوبةٍ من الحُمّى .

مكث « أوليفر » مدّة أسبوع طريح الفِراش ، لا يعى شيئًا ممّا حوله ، حتى إذا فارقته الحمّى ودبَّ إليه وَعْيُه شيئًا فشيئًا ، تساءل ذاتَ صباح قائلاً :

— « أين أنا ؟ ومن ذا الذى جاء بى إلى هذا المكان ؟ »

فسَمعَ صوتَ سيدةٍ طاعنةٍ فى السن كانت جالسة قريبة منه تقول له :

— « لا تتكلّم يا ولدى ولا تتحرك كثيراً ، فالمرضُ قد يعاودك . . . هذه وصية الطبيب الذى داواك . . . إنك هنا فى منزل السيد " براون " وهو بك شفيق رحيم . إنه الآن غائبٌ عن المنزل ، وسوف يسرُّه ، متى عاد ، أن يراك فى صحة جيدة » .

فشكرها « أوليفر » كل الشكر ، وأطنب فى شكره وأسْهَبَ حين جاءته بقدح من الشراب المنعش فشربه مسروراً .

وفى مساء ذلك اليوم جاءته بِقَصْعَةٍ مملوءة من الحساء السّاخن اللذيذ ، وإلى جانبها إناء مملوء كذلك بذلك الحساء ، فنظر « أوليفر » إلى القصعة والإناء ، وقدّر أن الحساء الذى فيهما يكفى ثلاثمائة فقير من أمثاله ، فشرب الحساء مريئًا ، وأكل هنيئًا ممّا كان مع الحساء من خضر ولحم الدّجاج ، هذا والمدبّرة العجوز هانئة مسرورة بإقبال « أوليفر » على الطعام بشهوةٍ ورغبة ، ثم رأته يحدّق طويلاً إلى صورة زيتية كبيرة ، معلّقةٍ على الحائط فقالت له :

— « أتحبُّ التصوير الزيتى يا عزيزى ؟ » فقال « أوليفر » :

— « لست أدرى يا سيدتى ، فقلما رأيت مثل هذه الألواح فى حياتى ، غير أن وجه الفتاة المرسومة فى هذا اللوح يبدو لى أنه يُشعُّ بالجمال

والحنان، فهل تشبه أحداً فى أسرة هذه الدار ياسيدتى؟» فقالت المدبـِّرة العجوز :

— « لا يا عزيزى » . فقال « أوليڤر » :

— « إن عينيها تفصحان عن الكآبة ، ويخـَيـَّلُ إلىّ أنها تحدِّق إلىّ وتريد أن تكلمنى » . فقالت المدبـِّرة :

— « لا تجهد نفسك فيما لا طائلَ تحته يا ولدى . . . »

وفى هذه اللحظة دخل السيّد « براون » واقترب من سرير « أوليڤر » مستفسراً عن صحته فقال له « أوليڤر » :

— « أرجو ألاّ تكون مستاءً منى يا سيدى ! » فضحك السيد « براون » ولاحت منه التفاتة إلى صورة الفتاة المعلـَّقة على الحائط ثم وزع نظراته بينها وبين « أوليڤر » فقال يخاطب مدبـِّرة المنزل :

— « يا لله من هذا الشَّبـَه الغريب ! . . . » ثم انصرف مسرعًا فقد حرّكت الصورة فى نفسه لواعج الشُّجون .





٤

عاد « جاك » و « شرلو » إلى منزل اليهودىِّ العجوز ، فلما رآهما اثنين لا ثالث لهما ، احتدم غيظًا وصاح فيهما قائلاً :

— « أين "أوليڤر" » ؟

فجـَزِع الغلامان من منظر ذلك الوحش الجاحظ العينين ، والتـَزما الصمت ، فانقضّ اليهودىّ العجوز على « جاك » وأمسك بتلابيبه وقال :

— « ماذا جرى له ؟» فقال « جاك » وقد استردّ بعض وقاحته وشجاعته :

— « لقد وقع فى الفخّ . . . ولكن هلاّ تركتنى أتنفّس ؟ ! » .

فدوّى صوت العجوز هائجًا مزمجراً وهو يقول :

— « أيُّها الشقىّ . . . »

وقبل أن يتمّ كلامه، فُتحَ باب الغرفة وسُمع صوتٌ جَهْوَرِيٌّ يقول:

— « ما هذا الرَّعْد القاصف فى هذه الغرفة ؟ ! »

وكان المتكلم الداخل على هؤلاء الناس ، رجلاً فى عُنْفُوان الرجولة ، يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر ، ويدلّ مظهره على الخُبث والإثم والإجرام ، فقال له اليهوديّ العجوز وهو يرتجف :

— « خَفِّض من صوتك يا "سيك" وانتظر نايخبرك "جاك" بما حدث ».

فروى « جاك » على طريقته قصّة « أوليفر » وقصة القبض عليه ، فقال اليهوديّ العجوز :

— « وأخْشَى ما أخشاه أن يكشفَ أمْرَنا ، ويثير لنا المشاكل ! »

فقال « سيك » فى ابتسامة خبيثة :

— « قد يكون ذلك ... ها أنت ذا قد بدأت تعلقُ بالشرك يا عزيزى " فاجن " » فقال العجوز :

— « إن وقوعى فى الشرك قد يحرّك إليه يا عزيزى " سيك " ، فلو عُرفتْ جرائمك لما كان مصيرك إلا السجن المؤبد أو حبل المِشنقة » .

فتطاير الشرر من عينى « سيك » ، وخيّم الصّمت على المجتمعين بضع دقائق ، فقطع « سيك » حبل ذلك الصّمت وقال :

— « يهمّنا أن نعرف أولاً ماذا حدث فى مخفر الشرطة ، وأين الغلام الآن » .

فأمّنَ اليهوديّ العجوز على هذا الرأى ، وأخذ يفكّر فيمن يقوم بهذه المهمة ، فتبسّم لما رأى باب الغرفة يفتح وتدخل منه الفتاتان اللتان كان « أوليفر » قد رآهما فى ذلك الوكر ، فبعد الوعد والوعيد رضيت الفتاة « نانسى » أن تقوم بتلك المهمة ، فرَفدَها اليهوديّ العجوز ببعض المال على سبيل المكافأة فحيّت الحضور وغابت ساعة أو ساعتين ، ورجعت تخبرهم بتفاصيل ما جرى للغلام « أوليفر » ، وكيف خرج من مخفر الشرطة وهو مغمى عليه ، يحمله صاحب المحفظة ، وليس من يعلم أين يقطن هذا الرجل .

فطار صواب اليهوديّ العجوز ، وقام يوزِّع بعض المال على أفراد عصابته ، وطلب إليهم أن ينصرفوا جميعاً ، ويجدّوا فى البحث عن الغلام « أوليفر » ، وأوصاهم أن يذهبوا به عندما يجدونه إلى المسكن الثانى ، أما هو فسيكون فى الحانة التى تعوّد أن يتردّد عليها ، فإن اتفق أن كانوا فى حاجة إليه فليقصدوه فى تلك الحانة .

انقضى ذلك اليوم على غير طائل ، فما استطاع أحد من أفراد العصابة أن يعرف مقرّ الغلام « أوليفر » ، وانقضت بعد ذلك أيام كثيرة فما أجدى البحثُ عن الغلام فَتيلاً ، حتى جاءت الفتاة « نانسى » ذات مساء ، وأنهتْ إلى رفقائها بالنبأ العظيم الذى وقفت عليه ، فقد عرفت منزل الرجل الذى سرق « جاك » محفظته ، وعرفت اسمه فهو يدعى « براون » ،

وعلمت كذلك أنّ « أوليفر » مقيمٌ فى منزل الرجل ، وأنه قضى نحواً من أسبوع طريحَ الفراش يعانى سَكَرات الحُمّى ، وأنه الآن قد تماثلَ للشفاء ، فهو هانئٌ سعيد فى ضيافة السيد « براون » يجولُ فى أنحاءِ المنزل ويتنزّه أحياناً فى الحديقة ، وتُعْنَى به مدبِّرةُ المنزل عنايةً فائقة ، وتوفِّر له أشهى ألوان الغذاء ، وتكسوه بأجودِ الملابس .

فرِحَ اليهوديّ العجوز لدى سماعه هذه الأنباء ، فمن السّهل الآن وقد عرفوا مقرّ الغلام ، أن يتصيّدوا الفرص لاختطافه ، والعَوْدة به إلى وكْرهم القَذِر .

وبحثت العصابةُ فى أمر خَطْف الغلام ، فعهدت فيه إلى الفتاة « نانسى » وطلبتْ إلى « سيك » أن يساعدها فى هذه المهمة ، فأذْعن كل منهما للأمر ، واتّفقا معًا على تدبير الخطّة المحكمة فى هذا السبيل ، وأوصاهما اليهوديّ العجوز بأن يذهبا بالغلام إلى المنزل الثانى . فسوف يتخذه هو والعصابة مَباءةً له حتى يجدا الغلام ، وسوف يوزِّع وقته بين ذلك المنزل والحانة التى يُؤْثِرها على غيرها من الحانات .

ومنذ صباح اليوم التالى ، بدأت الفتاة « نانسى » والفتى « سيك » يدُوران حول منزل السيد « براون » ، وحول الحديقة المحيطة به ، لعلّهما يريان الغلام فى ساعةٍ من الساعات وحيداً فى الحديقة ، فيصيداه صيدَ السِّماك ، ويطيرا به إلى منزلِ اليهوديّ العجوز .

وقضى المتربِّصان عدّة أيام فى اللفِّ والدوران حول مسكن السيد « براون » ، فما وقعت أعيُنهما على ضالّتهما المنشودة فى أرجاء الحديقة إلا مصحوبًا بسيد المنزل أو بالسيدة مدبِّرته ، فحال وجود أحدهما مع الغلام دون تنفيذ خطة الخطف تنفيذاً سهلاً هيّنًا بغير جلبة ولا ضوضاء . وكان « سيك » قد صحبَ معه فى هذه المهمة كلبه المحبوب ، وهو كلبٌ ضَخْم الجثّة ، قبيحُ المنظر ، متحفزٌ للوثوب عند أوّل إشارة يشير بها سيّده ، فكان « سيك » يُدارِى ما يُساوِرُه من السّأم والملل ، بمداعبة كلبه حينًا بعد حين .

وطالت أيام الترقب والانتظار ، حتى كاد اليأس يدبّ إلى قلب هذين الأثيمين ، وحتى كادا يرجعان من مهمتهما بخُفَّىْ حُنَيْن ، فحدّث عن دهشتهما وفرحهما ولا حَرَج ، حينما شاهدا الغلامَ فى أصيل أحد الأيام يخرج من المنزل متأبطًا عدداً من الكُتُب ، ويركضُ ما وَسِعه الركض ، متوجهًا إلى الشارع العمومى ، فتفاهما بالإشارة على أن يتركاه قليلاً حتى يبتعد عن المنزل ثم ينقضّا عليه ، فلاحِقا به من بعيد دونَ أن يفقدا أثَره ، وهما يسائلان النّفس : ما شأنُ الغُلام ؟ وعلامَ يركضُ هذا الركض ؟ وإلى أين يجرى بتلك الكتب التى تأبطها ؟

وجليةُ الأمر أن السيد « براون » كان يراجع بعض الكتب فى مكتبته بالمنزل ، فرأى أن يُعيد قِسمًا منها إلى صاحبِ المكتبة التى كان واقفًا

إزاءَ واجهتها، يقلّب أسفارها يومَ سُرقت منه محفظة نقوده، وأن يستبدل بها غيرَها ، فلما وقف «أوليفر» على رغبة المحسن إليه ، أراد أن يوفّر عليه عناءَ الذّهاب إلى المكتبة ، فطلب إليه أن يكلفه أداءَ تلك الرّسالة ، ووعده أن يعود من قضاء مهمته أعجلَ ما يكون، فقبِلَ السيّد «براون» عرْضَ الغلام بعد تردّدٍ غير قصير ، ولعلّه شاء أن يمكّن «أوليفر» من استنشاق نسيم المدينة ، بعد إذْ طال مكثُه فى البيت مريضًا وناقهًا .

وعلى هذا رأينا «أوليفر» الكريم الخُلُق ، الطيبَ القلب ، الرقيقَ الشّعور ، يُغادر دار السيد «براون» راكضًا إلى غايته ، وهو سعيدٌ بأن يخدم الرجلَ الذى رعاهُ وآواه وعطف عليه ، ولكنّ القدرَ القاسى كان له بالمِرْصاد ، فلم يدْر أيّة مصيبة تنتظره بعد خروجه من بيت كافِله وراعيه .

كان همّ «أوليفر» أن يمضى إلى صاحب المكتبة، ويستبدل بالكتب التى تأبّطها الكتبَ التى يرغبُ السيد «براون» فى الحصول عليها ، ويعود سريعًا إلى الرجل الحنون الكريم بما طلب وابتغى ، غير أن تلهّفَه إلى الإسراع ، جعَلَه يخلط بين بعض الأزقة والدّروب . فعندما اجتازَ الشارعَ الكبير ، وأراد أن ينعطف منه إلى الطريق المؤدّى إلى المكتبة التى يقصدها ، حَدَتْه العجلة إلى أن يسلك طريقًا آخر ، أفضَى به إلى أزقّةٍ ضيقة اكتظّتْ فيها المنازلُ الحقيرة، فدَهش وتعجب ، وأدْرك

أنه ضلّ الطريق ، فهمّ بأن يعود على أعقابه بحثًا عن الطريق الصّحيح، ولكن سُرْعان ما شَعَر بذراعين تطوّقانه ، وصوتٍ ناعمٍ يقول له :

— «أخى الحبيب ! آه يا أخى الحبيب ! لقد عثرتُ عليك بعد طولِ الغياب. . . كيف طاوعك قلبك أن تهجرَ أمك، وتتركها تذْرِفُ الدمع السّخين على فراقك . . . تعال معى يا أخى الحبيب إن أمّنا سيُقيمها الفرح ويُقعِدها بلقائك ! »

سَمِعَ «أوليفر» هذا الحديث فما فَهِم منه شيئًا ، فأيةُ أمّ هجرها وتركها بعده حزينةَ القلب دامعةَ العين ؟ فاستَدارَ بعد جهدٍ ومشقة ليعرف مَنْ هذه الفتاة التى تطوّقه بذراعيها ، وتحسب أنه أخوها ، فوقع بصره على الفتاة «نانسى» وكانت قد لحقت به إلى ذلك الزقاق الضيق ، بعدما تعقّبَتْه منذ خروجه من منزل السيد «براون» ، فاضطرب اضطرابًا شديداً ، وحاول أن يتملّصَ منها وهو يقول :

— «دعينى يا "نانسى" أذهبْ لشأنى ، فإنى مكلّفٌ قضاءَ مهمةٍ عاجلة ! » فقالت له وهى تصيح بأعلى صوتها :

— «لا . لا أتركك ! إن أمّنا ستموتُ حزنًا على بِعادك ! ولكن ما هذه الكتبُ التى تحملُها ؟ ومن أين سَرَقْتَها ؟ . . . »

وقبل أن يجيبها «أوليفر» عن أسئلتها، اصطكّتْ ركبتاه فَزَعًا ورُعْبًا عند رؤيته الفتى «سيك» وكلبه المتوحش وهو يحاول أن ينقضّ عليه



ويمزّق ثيابه ، فأخذ يصيح خائفاً ، ويبكى بكاءً مرًّا . وكان نفرٌ من السِّفْلة والرَّعاع ،قد تجمعوا حول هؤلاء الثلاثة ، فازدادت « نانسى » صياحاً وهى تقول :

— « ساعدونى ياقوم على هذا الولدِ الطائش . . . إنه أخى ولكنه شرِّير آبق . . . » ثم أشارت إلى « سيك » قائلة :

— « وهذا أخونا الأكبر ، سَلُوه يجبْكم عن موبقات هذا الأرْعَن اللّعين ! » وكأنما ثارت الحمية فى نفس « سيك » ، فأقبلَ على الغلام يصفعه وهو يقول له :

— « إلى المنزل أيُّها الأحمق ، وإلا أدَّبتُكَ شرَّ تأديب » .

وصدّقَ الرَّعاع المتجمعون تلك الرّواية، فعدّوها مهزلةً عائلية ، دون أن يعلموا ما تنطوى عليه من مأساة ، فانصرفوا بعد قليل إلى شؤونهم وهم يقولون فيما بينهم و بين أنفسهم :

— « ماذا على الأخِ الأكبر لوأدّب أخاه الأصغر! »

وأقْفَرَ الطريق من السابلة والمارّة ، فأيقن « أوليفر » من سوء المصير ، ووثقَ بأنْ لا فائدة تُرْجَى من الصراخ والاستغاثة ، فاستسلم لمشيئةِ الأقدار ، وسمع « سيك » يقول له مهدداً :

—« ضَعْ يدَكَ فى يد "نانسى" وسِرْ معها إلى حيثُ تقودُك وسأتبعكما عن كَثَب ، فإن حاولتَ الهرب أو التفوُّه بكلمةٍ ، أطلقت عليك كلبى

الضخم فمزّقك تمزيقاً . . . أسمعتَ أيُّها الوقح ؟ » فأذْعَن « أوليفر » المسكين اليائس لأوامر ذلك الرجل الغليظ الكبِد ، ومدّ يده اليُسْرى إلى « نانسى » فأمسكت بها ، وسارت به فى صمتٍ وسُكون ، فما زالت تلك القافلة تسير من طريق قذرٍ إلى طريق أقذر ، ومن زقاقٍ ضيّقٍ إلى زقاق أضيَق ، حتّى وصلت بعد نصف ساعة إلى منزل متهدّم يبدو على مظهره أنه خالٍ من السُّكان ، فطرق « سيلك » الباب ثلاثَ طرقات ، فانفتح على الفورِ ، وتقدم « سيلك » إلى الدهليز وهو يصيح :

— « تحية وسلام » .

وماهى إلا ثوانٍ معدودات حتى برز الغلام « جاك » فى الدّهليز وبيده مصباحٌ خافتُ الضّوء ، فأنار السَّبيل للقادمين ، فوصلوا بعد قليل إلى غرفة فسيحة ، فهبّ إلى لقائهم اليهوديّ العجوز والغلام « شرلو » . فرحّبَ أهلُ البيت بهم ترحيباً جميلا ، وكان اليهوديّ العجوز يفرك يديه تارةً ، ويداعب لحيته تارةً أخرى وهو فرِحٌ بمقدم « أوليفر » .

وبدأت النكات والدعابات الثقيلة تنهال على «أوليفر» وهو صامتٌ ذاهل ، يندب فى نفسه حظّه الأنكد الذى عاد فرماه فى مخالبِ أولئك الوحوش ، وكان أكثر ما يحزّ فى صدره حكم السيّد « براون » عليه ، عندما يترقّبُ عودته فلا يراه ، فسوف يرميه ولا شك بالخيانة والاحتيال .

كان « أوليفر » يفكّر مثل هذا التفكير النبيل حين أخذ الغلامان

« جاك » و« شرلو » يزعجانه بأقوالهما الغليظة ، فمن قائل له وهو يتحسس ملابسه :

— « ويحَك ! أنّى لك هذه البذلة الجميلة ؟! » ومن هازئٍ به وهو يشير إلى الكتب التى يتأبّطها ويقول :

— « لقد أصبح صاحبنا عالمًا من العلماء ! هيَّا حدّثْنا عن محتوى هذه الكتب ، اللهمّ إلاّ أن تكون قد سرقتها ، فلن تفقَهَ فيها شيئًا ! هاتها أيها اللص فما شأنُك أنتَ والكتب ؟ ! »

وهجم عليه وجرّده من تلك الكتب ، فارتمى « أوليفر » عند قدمى اليهوديّ العجوز وقال له متوسّلاً :

— « ياسيدى ! إنّ هذه الكتب ملكُ السيد الكريم النبيل الذى آوانى وداوانى ، وأطعمنى وكسانى ، فبالله عليك إلاّ رَجَعْتها إليه حتى لا يظنّ بى الظّنون ! »

وقهقهَ العجوز ضاحكًا ساخراً ، وضحك معه « سيلك » والغلامان ، وقدمت فى تلك الأثناء الفتاة « بتسى » من الخارج دون أن تشعر أحداً بقدومها لكى يضىء لها الدهليز ، فقد كانت متعودة السير فى الظلام ، فالتفت الحاضرون إليها وسهَا عليها أن تُقْفل باب الغرفة ، فاغتنمها « أوليفر » فرصةً ثمينةً وطار إلى الباب ، وخرج منه وهو يصيح :

— «المعونة ! المعونة ! أدركونى ياناس! أغيثونى من هؤلاء الشّياطين! »

وجرى اليهوديّ العجوز والغلامان وراء « أوليڤر » وهَمّ « سيك » بأن يُطْلِق كلبه وراء الهارب ، فحالت الفتاة « نانسى » دون ذلك ، ووقفت بينه وبين الكلب وهى تقول :

ــ « لا . لن يخرج الكلبُ من هنا ! حرام عليكم تعذيب هذا الغلام المسكين ! »

فانقضّ « سيك » عليها ودفعها عن الباب دفعةً قويّةً رمتها فى زاوية من زوايا الغرفة ، فنهضت تريد أن تثأر لنفسها من « سيك » ، ولكنّ الباب فُتح فى تلك اللحظة ، ودخل منه اليهوديّ العجوز والغلامان ، وهم يدفعون أمامهم « أوليڤر » ، فنظرت إليه « نانسى » فرأته شاحبَ الوجه مرتجف الأوصال ، فاستيقظ فيها الضمير الحيّ ، وندمت أشد الندم على الجريمة التى ارتكبتها فى إعادة « أوليڤر » إلى هذه البؤرة من الفساد واللصوصيّة .

ولقد كادت تفقدُ وعْيها عندما رأت اليهوديّ العجوز قد تخلّى قليلاً عن « أوليڤر » ، ومضى إلى بعض الزوايا وعاد منها بعصاً غليظة ، وأهوى بها على « أوليڤر » وهو يقول له :

ــ « أكنت تريدُ الهربَ فتجمع علينا رجال الشرطة والجيران أيُّها الحقير ؟ ! »

فتفادى المسكينُ الضّربة حينما هجمت « نانسى » على اليهودى العجوز

كاللّبؤة فقدتْ أشبالها ، فجرّدتهُ من عصاه ، ورمتها فى الموقد فاشتعلت بها النار . وتحفّزَ « سيك » ليؤدِّبَ الفتاة « نانسى » فوقفه اليهوديّ العجوز قال :

ــ « دَعْها فسوف يعودُ إليها رُشْدها ، وينقذها من ثورة نفسها ومن صوت الفضيلة التى تهتفُ بها » .

وأشار العجوزُ إلى الغلام « جاك » أن يقود « أوليڤر » إلى بعض الغرف المظلمة فى المنزل ، ويُقْفِل عليه الباب ففعل ، ورأى « أوليڤر » فيها فِراشاً مُعَدّاً ، فانطرح عليه وهو مُتْعَب مُثْقَلٌ من الغَمّ والإعياء ، فأخذته سِنَةُ الكرى ، فنام نوماً عميقاً .



٥

انتظر السيِّد « براون » على أحرّ من الجمر رجوع « أوليڤر » من المهمَّة التى وكلها إليه ، ولكن طال انتظاره دون جدْوَى ، ومرّت الساعة تِلْوَ الساعة حتى انتصف الليل ، فأوى إلى فراشه وهو قَلِقٌ نادمٌ على أن سمح للغلام بالخروج وحده إلى شوارع المدينة فى مثل تلك الساعة التى خرج فيها .

ولم يقطع السيّد «براون » ولا مدبّرة منزله الأملَ فى عودة « أوليڤر » إليهما فى اليوم التالى ، فكانا كلّما قَرَع قارعٌ بابَ الدّار ، هُرع كلٌّ منهما إلى نافذة من النوافذ ، وهما يأملان أن يكون القادمُ إليهما « أوليڤر »

الحبيب ، فخاب فألُهما غيرَ مرّة ، وطَوَيا قلبيهما على المرارة والأسى .

وانقضى أسبوعٌ على غياب « أوليڤر » فقطعا عندئذ كل أمل فى رجوعه ، وساورت نفس السيد «براون » الوساوس ، فنشر فى إحدى الصحف إعلانًا يمنحُ فيه خمسة جنيهات لمن يدله على أخبار غلام فى نحو العاشرة من عمِره ، يدعى « أوليڤر تويست » غاب عن منزله منذ أسبوع ، ثم ضمّن الإعلان وصفًا ضافيًا لصفات الغلام الجسمانية .

وفى صباح اليوم التالى الذى نشر فيه الإعلان كانت إحدى مركبات السفر العامة قد وصلت إلى باب من أبواب لندن ، فتوقّفت قليلاً للاستراحة ونزل منها بعض الرُّكّاب يتمشّون قليلاً بعد طول الجلوس ، وكان بينهم السيد « بمبل » موظف الملجأ الذى عرفناه فى مُسْتَهَلِّ هذه القصة ، فمرّ به أحدُ باعة الجرائد ، فاشترى منه صحيفةً من صُحُف الصَّباح ، وشَرَع يُطالعها ، فاستوقفه الإعلان المنشور عن « أوليڤر » فقرأه مَثْنى وثُلاثَ وعَمَدَ إلى نظّارته فمسحها مرةً بعد أخرى وركزها على عينيه تركيزاً محكماً ، وأعاد قراءة الإعلان ، ودقق طويلاً فى الأوصاف المنشورة عن الغلام ، فوثِقَ كلَّ الوُثوق بأن « أوليڤر » هذا هو « أوليڤر » الذى يعرفه . فلمّا وصلت المركبة إلى وسط المدينة ، عدل عن الذهاب إلى المكان الذى كان يقصده فيها لقضاء بعض الشؤون ، وتوجّه توًّا إلى منزل السيّد « براون » فسارع هذا إلى استقباله ، ولحقت به مدبّرة المنزل عندما علما أن المقبلَ عليهما إنما جاء

يحدثهما عن الغلام « أوليفر » .

تبادل القوم تحيّة الصباح فى عجَلة ولَهْفة ، ثم استهل السيد «براون» الحديث فقال :

— « قلتَ ياسيدى إنك جئت تحدثنى عن الغلام " أوليفر " بعد إذْ قرأتَ الإعلان الذى نشرته عنه ! » فقال « بمبل » :

— « نعم ياسيّدى ! » فقال السيّد « براون » :

— « أين هو ؟ » فقال « بمبل » :

— « لستُ أعلم مقرّه ، ولكننى أستطيع أن أزَوّدك عنه بأنباء وأخبار لا يعرفها غيرى » .

فتململ السيّد «براون» وتململت معه مدبّرة المنزل ، وقد كانا يطمعان أن يعرفا مقرّ الغلام ، فيذهبا إليه ويعودا به إلى كَنَفهما ، غير أن السيد تذرّع بالصبر وقال :

— « هاتِ ماتعرف عنه ياسيدى » . فقال « بمبل » وقد اعتدل فى جِلْسته بعدما رشف آخر جرعةٍ من فنجان القهوة والحليب :

— « " أوليفر " هذا غلامٌ يتيم مجهول الوالدين ، وأغلبُ الظن أنّ والديْه ينتميان إلى أسرة فقيرةٍ لاتُقيم للفضيلة والأخلاق وزنًا من الأوزان ، فهى من بيئة يعيش فيها الشرّ والفساد والرذيلة » . فغشيت أعينَ السيد « براون » ومدبّرة المنزل غشاوة من الحزن والاستغراب ، فاستأنف «بمبل»

حديثه قائلاً :

— « ولد "أوليفر" فى ملجأ البر والإحسان ، وأنا الذى أطلقتُ عليه اسم " أوليفر تويست" ثم عهدنا فيه إلى دار رعاية الطفل حتى بلغ التاسعة من عمره ، وكان فظّ الأخلاق ، بليداً كسولاً نهِماً ، لايتورّعُ عن الاعتداء على الأطفال من زملائه اليتامى ، فاستعاده الملجأ واستودعه أحدَ الصُّنّاع الكرماء ليلقّنه مهنة يكسبُ بها رزقه ، فتشاجر ذاتَ يوم مع عامل من عمال ذلك الصّانع الذى آواه وأطعمه ، فكاد يقتله ، ثم هرب تحت جنْح الظلام خوفًا من طائلة العقاب ، وانقطعت أخباره عنّا » .

وكأنما اكتفى السيّد «براون» بما سمع فنَقَدَ الرجل الجنيهات الخمسة التى وعد بها فى الإعلان فقبضها « بمبل » واستأذن فى الانصراف ، فودّعه السيّد « براون » حتى باب الحديقة .

أمّا « أوليفر » الذى دار الحديثُ عليه ، فكان فى ذلك الصباح جالسا إلى الغلامين « جاك » و « شرلو » وهما يُغْريانه بالإذعان لمشيئة اليهودىّ العجوز ، والانخراط فى سلك عصابته ، حتى تصْلُحَ حالُه ، ويتوافر المال فى جيبه ، ويعيش عيشَ العزّ والسّعة ، وإلاّ بقى طولَ حياته فقيراً ذليلاً متسوّلاً ، وشاء « جاك » أن يمْعِنَ فى إغرائه فطفق يَذْرعُ الغرفة ، ويدُه اليمنى فى جيبه تَعْبَثُ بما فيه من نقود ، فنظر إليه « أوليفر » نظرة المشمئزّ وقال :

— « أتفخرُ بمالٍ جاءك عن طريق السَّلْبِ والسَّرِقَة ؟ ! » فقال « جاك » وقد أشعل لفافةً من التبغ :

— « لولم أكن حقيقًا به لما جاءني . . . وعلامَ يشقى الإنسانُ ويتعب إذا هو استطاع أن يحصلَ على المال عن طريق هيّنٍ سهْلٍ ؟ ! » فقال « أوليڤر » :

— « ولكنه مالٌ حرام ! »

فقهقه « جاك » و« شرلو » معًا من سذاجة « أوليڤر » وسلامة طويّته ، ودخل عليهما اليهوديّ العجوز وهما يضحكان ، فأنهيا إليه بحديثهما وحديث « أوليڤر » فأمّن على كلامهما ، وأخذ يقصّ على الغلمان أنباء بطولته في أيّام الحداثة والشّباب ، وكيف كان يتفنّن في النّشْل والسَّرقة حتى جمع ثروته . وكان هذا العجوز منذ صباح الليلة التي أعيد فيها « أوليڤر » إلى وكرِ اللصوص قد أخذ يتلطّف في حديثه مع « أوليڤر » ويغمره بعطفه ورعايته ، ويقدّم له أطايبَ ألوان الطعام ، ويسرد على مسمعه العظة تِلْوَ العظة في محاسن السَّرقة ، وما تجلبه على السّارق من رفاهةِ العيش ورغَده ، ولكن « أوليڤر » كان يُعيره أذنًا صماء ، ويترقب اليوم الذي يستطيع فيه أن يهرب من ذلك الجحيم ، ولكن هيهات ! فقد كانت الحراسة شديدةً عليه حتى لو أراد أن يمكر بالعجوز ، ويتظاهر بقَبُول عرْضه وإغرائه .

وعاد اليهوديّ العجوز إلى محادثة « أوليڤر » ثم أمر الغلامين « جاك » و« شرلو » بالخروج إلى عملهما ، ووعدهما بالجزاء الأسنى لو أتياه بعددٍ من السّاعات الذهبيّة والخواتم ، فخرجا هانئين سعيدين ، فلما انفرد بالغلام « أوليڤر » قال له :

— « لتُصْبِحَنَّ رجلاً عظيمًا لو سمعتَ نصحي وعملت بإرشادي! » فقال له « أوليڤر » متوسلاً :

— « ناشدتك الله ياسيدي إلا تركْتَني وشأني وأطلقت سراحي ! إن نفسي لا تطاوعني على النّشْل والسَّرقة ولو شئتُ أن أقهرها عليهما ما استطعتُ ، فهذا عمل لا أجيده ولو تمرّنْتُ عليه العمرَ كلّه ! »

فضحك العجوز حتى بانت نواجذُه وقال :

— « أنصحك بأن تكون رهْنَ إشارة الفتى " سيك " وأطوْعَ له من بنانه ، فهو كفيلٌ بأن يدرّبك خير تدريب » .

وكاد « أوليڤر » يعرب عن خوفه من « سيك » ورأيه الصريح فيه ، لولا أن دخل « سيك » عليهما فجأة ، فحيّاهما تحية مُبْتَسَرة ، فردّ العجوز على تحيّته بمثلها وقال يخاطب « أوليڤر » :

— « اترُكْنا وحدنا قليلاً ياولدي ، واقْضِ بعضَ الوقت في الغرفة الملاصقة ، ولا تطمع في الهرب فأنت تعلم أن ليس لها من منفذٍ غير هذا الباب الذي تراه في أقصى هذه الغرفة » .

فامتثل « أوليفر » لأمر العجوز ، فلمّا خلا الجو للأثيمين قال العجوز :

— « متى قرّرت الهجوم على المنزل الذى طلبت إليك أن تسرقه ؟ » فقال « سيك » :

— « فى ليل غد » . فقال العجوز :

— « سأرسل معك " أوليفر " وسيكون لك عونًا ثمينًا ، فأنا أعرف ذلك المنزل كل المعرفة ، فحسبك أن ترفع " أوليفر " إلى الكُوّة الصغيرة ، فينفذ منها إلى داخل المنزل ويفتح لك الباب فتدخل منه أنت وصاحباك اللذان اخترتهما » فقال « سيك » :

— « لستُ أدرى لماذا تُصِرُّ على ضَمِّ هذا الغلام إلينا ، مع هو عليه من عناد ومُكابرة ، فلو هرب منّا مرّة أخرى لم نأمَنْ من أن يشى بنا ويكشفَ أمرنا . » فقال اليهوديّ العجوز ضاحكًا :

— « أنتَ يا "سيك" تعوزك الفراسة وإن لم تُعْوِزك الجرأةُ والوقاحة .. إن هذا الغلام على جانب كبير من الذّكاء ، فلو انضمّ إلينا راضيًا مختاراً كان لنا منه سَنَدٌ أىُّ سنَد . . . أفهمت ؟ » فقال « سيك » :

— « وكيف السّبيل إلى اصطحابه معنا وهو نافرٌ منا ومن عملنا ؟ » فقال العجوز :

— « عليك أوّلاً أن تبعث " نانسى " إلىَّ فى هذا المساء ، فأسلّمها

إيّاه ، فتسوقه إليك دون أن يعلم من الأمر شيئًا ، وليس غير الفتاة "نانسى" من يستطيع أن يصحبَه إليك ، فقد وثق بها الغلام ومال إليها ، بعد تلك الليلة التى دافعتْ فيها عنه وناصرَتْه » . فقال « سيك » :

— « ومَنْ يُقْنِع " نانسى " بالقيام بهذا العمل وبالسكوت عن أمرنا المبيَّت ؟ » فقال العجوز :

— « أنت . . . إن " نانسى " تحبّك وتخشاك ، فاستعمل التهديد والوعيد . . . وعليك ثانيًا أن تكتم عن الغلام الغاية من اصطحابه معك إلى هدفك ، حتى تصلوا جميعًا إلى المنزل المقصود ، ثم عليك ثالثًا أن تتوعّده طول الوقت فيكون لك سامعًا مطيعًا » .

وفى مساء ذلك اليوم أقبلتْ « نانسى » إلى منزل اليهوديّ العجوز ، فحيّته وحيّت « أوليفر » وقالت له :

— « هيّا بنا يا عزيزى ! جئت أصحبك إلى مكان جميل أمين » .

ففرح « أوليفر » واعتقد أن ساعة خلاصه من ذلك السّجن قد حانت ، فلمّا صار هو والفتاة خارج الدار ، رأى مركبة تنتظرهما ، فركباها وهو مستغربٌ مَدْهوش ، وسار بهما الحوذيّ دون أن يسألهما عن المكان الذى يقصدانه ، فتطلع « أوليفر » إلى « نانسى » متسائلاً :

— « إلى أين يا " نانسى " ؟ » فقالت له بصوت عالٍ :

— « إلى مكان أمينٍ جميلٍ يا " أوليفر " » . ثم همست فى أذنه قائلة :



ـ « لقد أُكْرِهتُ على المجىء إليك واصطحابك . . . انظرْ إلى مِعْصَمَىَّ وعنقى تجدْ آثار الضَّرْب فيها . . . إن حياتك وحياتى فى خطر لو سمع هذا الحوذى حديثى معك . . . فاصبر ولا تيأسْ من رحمة الله ، فلعل ساعة خلاصك من أيدى هذه الطّغمة الشريرة قريبةٌ غير بعيدة » .

والتزمت « نانسى » والغلام الصَّمْتَ بعد ذلك ، وجرت بهما المركبة فى أزقّةٍ حقيرة حتى وصلت إلى منزل زرىّ فى أحد الأزقّة فوقفت عنده ، فترجلت « نانسى » وهى ممسكة بيد « أوليڤر » ودخلت المنزل فإذا « سيك » واقفٌ ينتظرهما ، وهو مقطِّبُ الحاجبين ، عابسُ الوجه ، فابتدر يخاطب « أوليڤر » قائلاً :

ـ « لماذا تأخّرت أيُّها الغلام البليد ؟ » فقال « أوليڤر » خائفًا :

ـ « لم نتأخّر ياسيدى فشُقّة الطريق واسعة ، ولقد قطعَتْها بنا المركبة دون أن نعرّج على مكانٍ من الأمكنة » .

فقال « سيك » والغضب لا يزال مرتسمًا على وجهه :

ـ « حسن . . . ها هى ذى المائدة مُعَدّة وحافلة بما يشتهى الإنسان من الأطعمة اللذيذة ، فاجلس إليها وتناول عشاءك معنا ، وعندما تفرغ من الطعام فانطرح على ذلك السّرير الذى تلقاه فى زاوية الغرفة ، وخُذْ نصيبك من النوم فسوف نستيقظ مبكّرين جدًّا ، ونغادر المنزل فى الساعة الخامسة . . . »

فلم يتنبس « أوليفر » ببنت شفة ، ولا جرؤ على أن يسأل ذلك الوحش المفترس إلى أين المسير فى الصباح الباكر ، فرأى « سيك » و« نانسى » قد جلسا إلى المائدة فحذا حذوهما وتبلغ بقليل من الطعام ، ونفسه عازفة عنه ، ثم مضى إلى السرير واستسلم للرقاد . . .

وقبيل الساعة الخامسة ، شعر بالسرير يهتز هزاً عنيفاً ، فوثب ناهضاً ، فأمره « سيك » بارتداء ملابسه ، فأذعن ساكناً وقبل أن يخرج به من المنزل وقفه « سيك » وقال له وهو ممسك بمسدس فى يده :

— « أتدرى ما هذا ؟ » فقال « أوليفر » :

— « إنه مسدس ياسيدى ! » فقال « سيك » :

— «انظر ... لقد وضعته فى جيبى وفوهته إلى الخارج ، فإن بدا لك أن تهرب أو تتلكأ فى تنفيذ ما آمرك به فى أثناء رحلتنا ، ألهبت دماغك برصاصه ، وتركتك جسداً بلا روح . . . أفهمت ؟ ! »

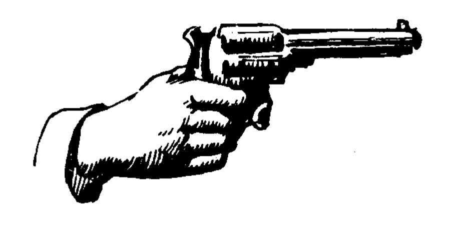
فحال ذعر الغلام دون الجواب ، فاكتفى بأن هز رأسه علامة الطاعة والخضوع ، وحانت منه التفاتة إلى « نانسى » فقرأ فى عينيها معانى الألم والرثاء له ، فخاف من العاقبة التى تنتظره ، ولكنه تشجع إذ رأى إنساناً يعطف عليه فى محنته الأليمة .

وخرج « سيك » و« أوليفر » من المنزل ، وبقيت « نانسى » فيه ، فما كادا يخطوان خطوة واحدة ، حتى رأى « أوليفر » المركبة التى أقلته

إلى « سيك » مساء أمس واقفة قرب الباب ، وكأنها تنتظرهما ، فاستوى « سيك » و« أوليفر » فيها ، فانطلقت بهما من غير سؤال ولا جواب .

لحظ « أوليفر » وهو غارق فى صمته وسكونه ، أن المركبة بعد أن اجتازت بهما الدروب الضيقة والأزقة القذرة ، قد انتهت إلى الطريق العام ، وهناك أخذ جواداها ينتهبان الأرض انتهاباً ، فأدرك أنهما غادرا مدينة « لندن » ، وأنهما يقصدان إما قرية من القرى فى ضواحى العاصمة ، أو مدينة من المدن القريبة . وكان « سيك » هو أيضاً صامتاً لا تنفرج شفتاه عن كلمة من الكلمات ، ولكنه كان من حين إلى آخر ، يخرج مسدسه من جيبه ، ويعبث به قليلاً ، ثم يصوبه إلى « أوليفر » وهو يقول له :

— « تذكر ما أوصيتك به ، وإلا فأنت تعرف عاقبة العصيان ! »





٦

جرت المركبةُ بالمسافرين جَرْياً حثيثاً حتى انتصف النهار ، فوقفت عند باب مَطْعَمٍ من المطاعم ونزل « سيك » منها وجرّ معه « أوليڤر » ودخلا المطعم ، فتناولا فيه طعامَ الغداء ثم دخن « سيك » عدّة لفافات من التّبغ ، ثم خرجا واستقلاّ المركبة فتابعت بهما السير إلى حيث يقصدان بل إلى حيث يقصد « سيك » فما كان « أوليڤر » ليَدْرِى كما علمنا إلى أين ستنتهى بهما خاتمة المطاف ، ولا كان يدرى الغرض من هذه الرحلة .

واستمرّت المركبة تجرى بهما حتى توارت الشمسُ وراءَ الأفق ، وبدأ المساء ينتشر على الأمكنة والبِقاع ، وعلى حين فجأة وقفت المركبة

على مقربة من أحد الجسور ، فترجّل الحوذىّ وترجّل بعده « سيك » و « أوليڤر » ثم أشار « سيك » إلى الحوذىّ إشارةً خاصة ، وأمسك بيد « أوليڤر » وسار به فى خُطًى واسعة ، فما شكّ الغلام المسكين إلا أن رفيقه الظالم قد جاء به إلى هذا المكان ليغرقه فى النهر ، ويتخلّص منه فى هذا المكان البعيد ، فلا يقف أحد على جريمته ، فارتعدت فرائصُ الغلام عندما جالت بخاطره هذه الفكرة ، وازداد يقينه بالخطر الدّاهم حين رأى « سيك » لايجتاز به الجسر ، بل ينزل من أحد جانبَيْه إلى مستوى النهر ، فبدا له أن يصيح مستغيثاً ، ولكن تذكّر المسدّس فى جيب غريمه ، ووازن بين الموت قتلاً بالرصاص أو غَرَقاً فى مياه النهر ، فآثر الصمت مستسلماً لمشيئة الله ، منتظراً مصيره المحتوم .

وصل « سيك » به إلى حافة النهر ، ولكنه لم يَرْمِه فيه كما توهّم ؛ بل سار به فى دَرْب ضيّقٍ متعرّج ، حتى بلغا كوخاً من الأكواخ مُقاماً على جانب النهر ، فتنفّس « أوليڤر » الصعداء لما رأى « سيك » يطرقُ باب الكوخ طرقاً خاصاً ثم يَنْفَتِحُ الباب ويدخل منه إلى الكوخ ، ويستقبله فيه رجلان تبعثُ سَحْنَتُهما البشعة بالذُّعْر فى القلوب ، ويقول له أحدهما وهو يشير إلى « أوليڤر » : « مَنْ هذا ؟ »

فأقبل « سيك » على الرجلين يحدّثهما حديثاً خافتاً ، فبدت على الرجلين علاماتُ الطمأنينة ، بل لعلّ وجود الغلام قد سرّهما ، ثم دَعَوا

« سيك » والغلام إلى تناول الطعام ، فأكلوا جميعًا ثم قال « سيك » يخاطب « أوليفر » :

«تمدّدْ على هذا المقعد وتمتّعْ بقسطٍ من الراحة فإننا سنستأنف السَّيْر فى منتصف الليل » .

فامتثل « أوليفر » للأمر ، وكان فى أشدّ الحاجة إلى النوم والراحة

وفى منتصف الليل دهش الغلام إذ رأى الرجلين يصطحبانهما ، ويركبان معهما المركبة التى جاء هو و « سيك » بها ، وكانت تنتظر القوم حيث وقفت على مقربة من الجسر . فبدأ « أوليفر » يفكّر ويُطيل التفكير لعله يدرك الهدفَ من هذه الرحلة الشاقّة مع هؤلاء الأبالسة ، فما استقرّ فى ذهنه رأى يرتاح إليه

وبعد مسير ساعة من الزمان، وقفت المركبة ونزل منها الراكبون وساروا قُدُمًا بين المزارع حتى وصلوا إلى منزل جميلٍ قائم فى وسط حديقة غنّاء، يحيط بها سورٌ قليلُ الارتفاع ، فوقف الرجال الثلاثة عند جانب من جوانب السور ، وأخرج « سيك » مسدسه وسدّده إلى صُدْغ « أوليفر » وهو يقول له همسًا : « تذكّر وحذار». ثم تسلّق أحد الرجلين السور وهبط منه إلى الحديقة ، ورفع « سيك » الغلام وقذف به إلى الحديقة ، فتلقّاه الرجل الذى سبقهم إليها ، ثم لحق به « سيك » والرجل الآخر ، ومشى الرجال الثلاثة والغلام فى خطوات خفيفة إلى أن بلغوا باب المنزل، متسترين

بِرِداء الظلام ، وهناك انفرد « سيك » بالغلام وهَمَس فى أذنه :

— « انظر إلى هذه الكوّة الصّغيرة فى أعلى الجدار . . . سنفتح بأدواتنا بابها الخشبىّ ، وسنرفعك إليها فتجتازها وتهبط منها إلى السلّم ، فهو غير بعيد منها ، ثم تنحدر منه إلى باب المنزل فتشدّ مِزْلاجه وتفتحه لنا ... وإياك أن تحدّثك النفس بغير هذا الذى آمرُك به ، وإلا مزّقتُ جسدك برَصاص مسدّسى أنّى كنت » .

فما وَسِعَ « أوليفر » إلا الإذعان ، ولكنه كان قد صمم فى قرارة نفسه أن يهبطَ من الكوّة إلى السلّم ، ويملأ المنزل صياحًا واستغاثة ، لعل سكان المنزل يُهْرَعون إلى نَجْدَته ، وينقذون أنفسهم من هؤلاء اللصوص الذين جاءوا يُغِيرون عليهم ويسلبونهم المال والمتاع .

وقف أحدُ الرجلين مستنداً إلى الجدار وعاون الرجلَ الثانى على أن يرتفع إلى كتفيه ، فلما استقرّ عليهما بلغ الكوّة فأخذ يُعالجُ بابها بما فى جيوبه من أدوات حتى فتحه ،وهنا اقترب «سيك» من«أوليفر» ورفعه بكلتا يديه ، وقذفه إلى الرجل الذى فتح باب الكوّة ، فتلقّاه بيده اليمنى ، فى حين أمسك باليسرى حافة الكوّة حتى لا يسقط ، وبعد أن استعاد توازنه ، دفعَ بالغلام إلى مدخل الكوّة ولكن ... لمع فى المنزل على حين غرّة ضوءُ مصباح أعقبه طلقٌ نارىّ سقط « أوليفر » على أثره مرتميًا إلى الحديقة ، فتلقفه « سيك » ثم علا الضجيجُ فى المنزل، فلم يَسَع اللصوص

إلا الهرب ، فتسلّقوا سور الحديقة ولاذ الرجلان بالفرار ، أما « سيك »
فكان أبطأ منهما حركة ، لأنه كان يحمل « أوليفر » مغشياً عليه .

وشعر « سيك » بعد قليل أن سكّان المنزل قد غادروه إلى مطاردتهم ،
فأصواتُ الناس ونباحُ الكلاب تمزق سكون الليل ، وتصلُ إليه فتحدوه
على الإسراع فى الهرب ، ولكن كيف السبيل إلى الفرار وهذا الغلامُ
المغمى عليه يعوقه عن الركض والابتعاد عن المطاردين ؟ !

وزاد فى قلقه وحنَقه سماعُه دوىّ عجلات المركبة التى كانت تنتظرهم ،
فعلم أنّ زميليه قد استقلاها وهربا بها . وبينما هو يجرى على غير هُدًى ،
عثرت رجله فوقع فى حُفْرة فتدارى بها هو والغلام ، على أمل أن يستأنف
الهرب عندما تخفّ وطأة المطاردة ، وحينما وضع « أوليفر » فى أرض الحفرة
لحظ أن ذراع الغلام اليسرى يسيل منها الدّم ، فأدرك أنّ الطّلْق النارىّ
قد أصابه دونهم جميعاً ، فأخذ الشّال الملفوفَ على عنقه ، وربط به جرح
« أوليفر » ربطاً محكماً فمنعه من النزيف ، وقضى ساعات طويلةً فى
ذلك المخبأ ، لا يستطيع الخروج منه . وكان كلّما همّ بمغادرته طرقت
مسمعَه أصواتُ المطاردين فقبَع فيه ، وعندما بدأت خيوطُ الفجر
تلوح فى الأفق ، نظر إلى وجه « أوليفر » فرأى جفونه تتحرّك كالمستفيق من
نومه أو غيبوبته ، فقال فى نفسه : إن هذا الغلام سيعوّقنى عن الهرب ،
وجرحه علامةٌ مميزةٌ تلفت الأنظار إلىّ فى هذه البقعة ، فقرّر أن يتركه

ويرحل عنه ففعل .

وطلَع الصباح من خلال الغمام الذى كان يملأ السماء ، فأفاق
« أوليفر » وهو يرتجف من البرد ، وكان لا يزال خائرَ القُوَى ، فاستغرب
من وجوده فى تلك الحفرة ، فتحرّك قليلاً من موضعه ، فاشتدّ عليه
الوجع ، فتحسّس ذراعه اليسرى فإذا هى تنزف دماً من ثنايا رباطها
المحكم ، فصاح متألماً وبقى يزفر ويتنهّد حتى طلعت الشمس ، فاستجمع
قواه وخرج من الحفرة ، وأخذ يُجِيل الطّرْف فيما حوله ، فلم يعرف أين
هو ، فمشى بين المزارع لعله يجد أحداً يستنجده ويُعنى بجرحه ، وظلّ يمشى
متحاملاً على نفسه إلى أن لاح له منزلٌ قريبٌ محاطٌ بحديقة مسوّرة ،
فقام فى ذهنه الصغير أنه يعرف هذا المنزل وتلك الحديقة ، ولكنه لا يذكر
متى رآهما ، فسار إليها يتعثّر مرّة وينهض أخرى ، فوصل إلى باب
الحديقة وكان مفتوحاً ، فدخل منه ومشى إلى باب المنزل وهو يكاد يقع
من شدّة الألم والإعياء ، فما إن يحدّق إلى المنزل وإلى الكوّة التى فى أعلى
الجدار ، حتى ينجلى له الموقف ، ويتذكّر حوادث الليلة الماضية ،
ويعلم أنه المنزل الذى حاول اللصوص سرقته معتمدين عليه فى غرضهم
الأثيم ، ففكّر أن يعود على أعقابه هارباً لئلا يُتّهَم بجريمة السّرقة ،
ولكنه سقط مغشياً عليه عند الباب .

وكان سكّان المنزل يتألّفون من أرملة عجوز وصبيّة حسناء ومن طبّاخ

وخادم وخادمة ، ومدبِّر للمنزل يدعى « جيل» نشأ فى كَنَفَ الأسرة ورُبِىَ عندها فاكتسب بذلك بعض الرعاية والسلطان ، وكان هو الذى أطلق النار على المعتدين فى الليلة البارحة . فلما سمع جيل حركةً عند باب المنزل أمر الخادم بأن يستقصى الأمر فعاد إليه وهو يقول :

— « غلام جريح يا سيّدى ! »

فسارع كلٌ من فى المنزل ما عدا الأرملة العجوز إلى رؤية ذلك الغلام الجريح ، فصاح « جيل » مزهوًا مفتخراً يخاطب الصبيَّة الحسناء:

— « مولاتى إنه أحد اللصوص الذين أغاروا علينا ليلة أمس . . . إن رصاصتى قد أصابت منه مَقْتَلاً » .

وتفرّست الفتاة فى وجه « أوليڤر » فتحركت فى فؤادها الشفقة به والرثاء لحاله فقالت :

— « انْقُلْهُ يا " جيل " إلى غرفتك ، واستدع الطبيب فى الحال ، وكونوا جميعًا معه حُلَماء كُرَماء النفس ! » فقال « جيل » :

— « مولاتى ! إنه أحد اللصوص الذين هاجمونا ليلة أمس ! »

فقالت الفتاة غاضبة :

— « إنه غلامٌ جريح وكفى ، وسننظر بعد ذلك فيمن يكون ! »

ونُفِّذَ قرار الفتاة ، فنُقِلَ « أوليڤر » إلى غرفة « جيل » وأقبل الطبيب بعد قليل فضمّد جرح الغلام ، وأسعفه الإسعاف اللازم . وكانت الفتاة

والأرملة العجوز تنتظرانه فى البهو ، فاستوضحتاه شأن الجريح فقال :

— « لقد انتزعت الرصاصة من ذراعه وضمدت جرحه ، فهو الآن فى غيبوبة ، وقد يستفيق بعد ساعة أو ساعتين ، وسأعود إلى زيارته قبيل الظهر ، ولكننى أرجو أن لا يُزْعَج بالأسئلة وأن لا يُحَمَّل على الكلام » .

وسكت الطبيب هنيهة ثم قال :

— « وهكذا يا سيدتىّ عُنِيتما بمن حاول سرقتكما البارحة ! »

— « إنه أصغر من أن يكون فى عِداد اللصوص » . فقال الطبيب :

— « اللصوصيّة كالموت يا آنستى ، فلا تفرّق بين الأعمار » .

— « ولكنَّ مخايلَ الغلام لا تدُلُّ على الإجرام ، ثم ما يُدْرينا أنه أحد اللصوص الذين هاجمونا البارحة ؟ أيكفى أن نرى غلامًا جريحًا فنوقن أنه اللص الذى أصابه " جيل " برَصاصته ؟ » فقال الطبيب :

— « قد تكونين على صَواب يا آنستى ، وكيفما كان الأمر فالحقيقة ستنكشف عما قريب » . فقالت الأرملة العجوز :

— « لقد أبلَغْنا رجال الشرطة بالسَّرقة ، فهل نتركهم يستجوبونه إذا حضروا ؟ » فقال الطبيب :

— « كلا ! فحَمْله على الكلام يُعَرِّضه لخطر محقَّق . ولك ياسيدتى أن تقولى لرجال الشرطة إن الطبيب المعالج يرجو منهم إرجاءَ استجواب الغلام ريثما يزول عنه الخطر . . . » فقاطعت الفتاة الطبيب قائلة :



— « إنّنا نتحدّث عن هذا الغلام تحدُّثَ المقتنع بجرمه ، فى حين أنّه قد يكون بريئًا ، ونفسى تحدّثنى أنّه برىء . . . »

فودَّع الطبيب الفتاة والسيِّدة الأرملة ، ووعد بالعودة بعد ساعات قلائل . ولم يكد الطبيب يبتعد من المنزل حتى أقبل رجالُ الشرطة يحقّقون فى حادث السَّطْو ، ويعاينون الأمكنة ، ويستجوبون سكان البيت ، ولمّا أرادوا أن يدخلوا حجرة «جيل» تصدّت لهم الفتاة وأخبرتهم أن فيها غلامًا جريحًا جاءهم فى هذا الصباح مستغيثًا مُستَنجِداً ، فاستَدْعَوا له الطبيب وحاله الآن تُنذِر بالخطر ، ثم بيَّنت لهم الفتاة أنها لا ترى صلةً من الصّلات بين هذا الغلام وحادث السَّطْو ، فسِنُّه لاتَحتمِل على الظن أنه من اللصوص الذين يَسْطُون على المنازل ، ولو فُرِضَ المستحيل وكان مِمَّن سَطَوْا على منزلنا لما جاء إلينا يسعى عن حَتْفه بظَلفِه . . .

فوَثِقَ رجالُ الشرطة بكلام الفتاة ، وعدلوا عن استجواب الغلام ، ولكنهم اشترطوا عليها أن يكون رَهْنَ العدالة إذ ما بدا للقضاة أن يحققوا أمره ويستجوبوه ، فعاهدتهم على ذلك .

ومكث « أوليفر » عدّة أيام طريح الفراش وصريعَ الحمَّى ، ولم يدّخر الطبيبُ وُسْعًا فى معالجته ، ولا توانت الفتاةُ الحسناء واسمها « وردة » عن مداراته والعطف عليه ، حتى فارقته الحمَّى وأخذ البرء يتمشَّى فى جسده السَّقيم النَّاحل . ويومَ استطاع أن يستوى فى سريره متماثِلاً للشّفاء ،

قصَّ على الآنسة « وردة » فى حضور السيدة الكبيرة والطبيب قصته التاعسة ، وما شكّ أحد فى روايته ، بل رَثَوْا كلهم لحاله ، وأحاطوه بالعطف والشفقة ، ولا تسل عمَّا اجتاح فؤاده من شعورِ الوفاء والعرفان بالجميل حين رأى الآنسة « وردة » تَمِيلُ عليه لتُصْلح من جِلْستَه فى السَّرير ، وتسكب من عينيها عبرتين سخينتين انهمرتا على خدّه الأيسر ، فعصفتا بقلبه ، وحار كيف يعبّر لها عن ولائه ومحبته وإخلاصه إزاء هذا الحنان الذى غمرته به

وشفى « أوليڤر » تمامَ الشّفاء ، واستضافته الأسرة ، وقضى معها أيامًا جميلةً هانئة . . .





٧

فى ضُحَى اليوم الذى تحامل فيه « أوليڤر » على نفسه وخرج من الحُفْرة ومشى وهو جريحٌ محموم يلتمس النَّجدة والمعونة ، كانت مدبِّرة الملجأ الذى وُلدَ فيه « أوليڤر » جالسة إلى موظف الملجأ تسمع منه الأوامر التى كلَّفه مجلس إدارة الملجأ أن ينقلها إليها ، وبينما كان الموظف أى السيد « بمبل » يتحدّث بلهجته الخطيرة ، والمدبّرةُ تصغى إليه فى حَذَرٍ وانتباه حتى لا تفوتَها شاردةٌ ولا واردةٌ من حديثه ، قرع أحد القادمين باب الحجرة قَرْعًا عنيفًا فقالت المدبّرة :

— « مَن القادم ؟ ادخل ! »

وفتح الباب وبدا منه رأسُ متسوّلة عجوز ، فقالت لها المدبّرة فى نَزَقٍ وحَنَق :

— « ماذا تريدين ؟ » فقالت المتسوّلة :

— « سيّدتى ! إن العجوز " سالى " تحتضر وتعالجُ سكرات الموت! »فقالت المدبّرة متضجّرة :

— « وماذا عساىَ أن أصنع لها ؟ أفى وُسْعى أن أردَّ عنها غائلةَ الموت ؟ » فقالت المتسولة :

— كلا فما من الموت مفرّ ! ولكنَّها تتوسَّل إليك أن تُهْرَعى إليها فى الحال قبل فَوات الأوان ، فلديها سِرٌّ خطيرٌ تريد أن تُفْضِىَ به إليك ، ولن تموتَ مرتاحةَ الضمير إذا هى فارقت هذه الدنيا ومعها السرّ المغيَّب فى صدرها »

فاستأذنت المدبّرة من الموظف وخفَّت هى والمتسولة إلى حجرة مهملة من حجر الملجأ كانت مأوى المحتضرة ، فرأت هناك عجوزاً أخرى تسهر على المريضة التى كانت أقرب إلى العالم الثانى منها إلى هذا العالم ، فأخلت العجوز المكان للمدبّرة وخرجت والمتسوّلة من الحجرة ، فاقتربت المدبّرة من المحتضرة وقالت لها :

— « ها أنا ذى يا " سالى " فماذا تريدين أن تُنهى به إلىّ ؟ »

ففتحت المحتضرة عينيها كأنَّها عائدةٌ من العالم الآخر ، وقالت لها

بصوتٍ خافتٍ يشبه الهمس :

— « اقتربى منى . . . يجب أن أقول لك . . . أتذكرين أنّى فى هذه الغرفة ، وعلى هذا السرير ، كُلِّفتُ فيما مضى السَّهرَ على سيّدة حسناء فتيَّة ، وفدَتْ إلى الملجأ معفَّرة الشَّعر والثياب ، مورّمة القدمين من طول ما مشت ؟ . . . إن هذه السيدة الجميلة قد وضعت غلاماً وماتت ... آه ! دعينى أفكر فى أيَّة سنةٍ كان ذلك . . . » فقالت المدبّرة :

— « لا تَحفَلى بالسَّنة . . . وقولى ما تريدين أن تقوليه . . . »

فتجلَّدت المحتضرة كمن يستمدّ القوة من روحٍ خفىّ وقالت :

— « لقد سرقتُ من هذه السيدة شيئاً ... نعم سرقت منها شيئاً قبل أن تبرد جثَّتها . . . أجل قبل أن تبرد جثَّتها ... » فقالت المدبّرة وقد نَفِدَ صبرها :

— « قولى ماذا سرقتِ منها ؟ » فقالت المحتضرة :

— « الشيء الوحيد الذى كانت تملكه . . . كانت تضعه فوق قلبها ... كان من الذهب وربَّما استطاعت به أن تنقذ حياتها . . . »

وارتمت المحتضرة إلى الوراء مُتعَبة ، فمالت عليها المدبّرة وهى تقول لها بلهفةٍ وفُضول :

— «كان من الذهب ... ثم ماذا ؟ من كانت هذه الأمّ الفتيَّة ؟ »

فقالت المحتضرة :

– « أوصتنى أن أحتفظ به بكل دقّة وعناية ... عهدتْ إلىّ فى حفظه لأنى كنت الإنسان الوحيد القائم إلى جانبها فى لحظة وفاتها . . . ولعلّى أنا أيضًا السبب فى موت الطفل ... ربّما أحسنوا معاملته لو عرفوا . . . »

وتعبت المحتضرة من الجهد الذى بذلته فى هذا الحديث ، فغامت عيناها ، وارتخت مفاصلها ، فقالت لها المدبّرة جازعةً مستطلعة :

– « ما اسم هذا الطفل ؟ » فقالت المحتضرة :

– « كانوا يسمّونه « أوليفر » ... والذهب الذى سرقته كان . . . »

وحال الموت دون تتمّة عبارتها وأسلمت الروح . . .

وفى ضُحَى ذلك اليوم أيضًا عرف اليهودىّ العجوز ممّا طالعه فى الصحف أن العصابة قد أخفقت فى السّطْو على المنزل المنشود ، فأحرق الأُرّم غيظًا ، وبات يتوقّع أوخم العواقب من ذلك الإخفاق ، ولكنه اطمأنّ باله بعضَ الاطمئنان حين قرأ فى تلك الصحف أن اللصوص قد تمكّنوا من الفرار ، وأن رجال الشرطة والمباحث جادّون فى أثرهم

وبَيْنَا كان مستغرقًا فى تفكيره مساء اليوم التالى ، دخل عليه اللصّان اللذان اشتركا فى السّطْو فقصّا عليه القصّة من ألفها إلى يائها ، فصاح فى وجهيهما غضبانَ هائجًا :

– « ويحكما من تاعسين ! . . والغلام ؟ ! . . . الغلام ؟ ! ... »

وراعى اللصّان غضب الزّعيم فانصرفا لعلّ الوحدة تهدئ من ثائرته ،

أمّا هو فمكث قليلاً يضرب أخماسًا لأسداس ، ثم تناول قبعته وخرج من الدار قاصداً إلى نُزُل لا يجتمع فيه إلا المجرمون واللصوص ، فرحّب به صاحب النُّزُل فقال له اليهودىّ العجوز :

– « هل " مونك " هنا ؟ » فقال صاحب النّزْل :

– « كلا . ولعلّه يحضر بعد قليل » . فقال اليهودىّ العجوز :

– « حسن . أخبره أنى فى انتظاره مساء غد فى منزلى الثانى » .

وغادر العجوز المكان . وذهب توًّا إلى منزل « سيك » والشّرر يتطاير من عينيه وفى أثناء الطريق قال لنفسه :

إن كان « سيك » قد تآمر هو و « نانسى » على الاستئثار بالغلام ، فالويل لهما من انتقامى . دخل المنزل فاستقبلته « نانسى » باسمة ، فأوّل معنى ابتسامتها ألف تأويل فقال لها :

– « أين " سيك " ؟ » فقالت « نانسى » :

– « لستُ أدرى ! » فقال وقد حدّقَ إلى عينيها ليستشفَّ مطاوِيَ صدرها :

– « والغلام ؟ » فقالت فى صراحةٍ ظاهرة :

– « لستُ أدرى ! » فقال العجوز :

– « لقد قضى " سيك " ليلته أوّل أمس فى حفرة ، بعد أن أخفقَ فى مهمّته ، وكان الغلام معه » . فقالت :

ـ « أوَدُّ من صميم الفؤاد لو مات برداً أو جوعًا أو برصاصة عابرة، حتى ترتاح نفسه من حياة الإجرام التى يحياها . أما الغلام فكانَ الله فى عونه وأنقذه من مخَالِبك وبراثِنك » . فصاح فيها اليهودىّ العجوز :

ـ « دَعِى عنك هذا الرّياء... فأنتِ و"سيك" تعلمان حقّ العِلْم أن لهذا الغلام قصّة، وأنّى سأجْنِى من وراء تلك القصّة مئات الجنيهات إذا أنا قمتُ بأمرٍ معيّن... فإن أخفيتماه عنّى فالوَيل لكما من انتقامى..»

وتركها ذاهلةً مدهوشة ممّا سمعت ، وانصرف يقضى الليل فى منزله الثانى . وفى مساء اليوم التالى زاره هذا الذى يدعى « مونك » ولئن لم يظهر إلاّ الآن فى سياق روايتنا هذه ، لقد كان على صلةٍ باليهودىّ العجوز ، يتقابلان سرًّا ويتآمران معًا على الغلام « أوليفر » فلما تقابلا وجهًا لوجه قال اليهودىّ العجوز بصوت ملؤه الحسرة والأسى :

ـ « لقد أخفق التّدْبير الذى دبّرْتُه، وعاد أفرادُ العِصابة خاسئين».

ـ « إنك تصرّفت تصرُّف البُلَهاء ثم ما لنا وإشْراك الغلام فى حادث سَطْو ؟ أما كنتَ تستطيع أن تجعل منه نَشّالاً فقط ... كان ذلك يكفينى ! » فقال اليهودىّ العجوز :

ـ «كلا. لم يكن من السّهْل حَمْلُه على النّشْل، فهو غلام ذكىّ عنيد ، لا يفعل إلاّ ما يريد ... ومنذ اليوم الذى جئتنى فيه تخبرنى أن هذا الغلام هو ضالّتك المنشودة ، وأنا أجهد فى تنفيذ ما اتّفقنا عليه . . .

وزاد فى تَعَبى وإرهاقى أن الفتاة " نانسى " أصبحت تدافع عنه . . . »

ـ « ولماذا تُبْقِى عليها ؟ اخنقها ما دامت تعرقل خطّتكْ ...ولكن حذار على حياة الغلام فموته يسبّب لى المتاعب ، ولا بدّ أن تُعْرَفَ صلتى بالحادث فأفقد كل شىء . . . أريده أن يصبح وغداً سافلاً لصًّا . . . هذا كل . . . » وتوقف فجأة عن الكلام ، وتشبّث باليهودىّ العجوز وهو يقول له فى ذعرٍ واضطراب :

ـ « لقد لمحت خيال امرأة يتلصّص علينا ويتَنصّت إلينا . . . »

فهدّأ اليهودى العجوز من رَوْعه ، وأكّد له أنْ ما من مخلوقٍ رجلاً كان أم امرأة يجسر على تخطى عتبة باب المنزل إلا أن يكون من زُمْرة العصابة ، وهؤلاء لا يتلصّصون ولا يتنصّتون ، بل يدخلون توًّا حيث يكون . فلما لم يقتنع « مونك » بمنطق العجوز ، شاء هذا أن يُثْبت له صحّة ما يقول ، فأخذ المصباح وجال و « مونك » فى أنحاء المنزل غرفةً غرفة ، فما لمحا آثار إنسان ، فانصرف « مونك » ونفسه فريسةٌ للهواجِس والوساوِس .

وظهر « سيك » بعد أيّام ، فما استطاع أن يخبر اليهودىّ العجوز بمصير « أوليفر » ولا استطاع أن يهدّئ من ثائرته، ثم انقضتْ عدّة أسابيع وما من نبأ عن الغلام ، وكان اليهودىّ العجوز كلما خلا إلى نفسه طار فكره إلى الغلام « أوليفر » وَوَدّ لو عرف مقرّه فجنّد له الإنْس والجنّ يختطفونه ويعيدونه إليه، حتى لا يفقد المبلغ الضخم الذى وعده به « مونك »



مقابلَ إفسادِ الغلام ، ولكن أنَّى له الرَّجْم بالغيب ليعلم أن « أوليفر » سعيدٌ كل السَّعادة فى ضيافة الأسرة التى آوته ، وأنه يشغل نهاره بصيد العصافير وسَقْى الأزهار وتسلُّق الأشجار .

وأقبل « أوليفر » ذات يوم على الآنسة « وردة » وقال لها :

ــ « فى صدرى كلام أريد أن أفضى به إليك يا آنسة ، ولكنَّنى أخشى أن تتَّهمينى بالعقوق وإنكارِ الجميل » . فقالت « وردة » مبتسمة :

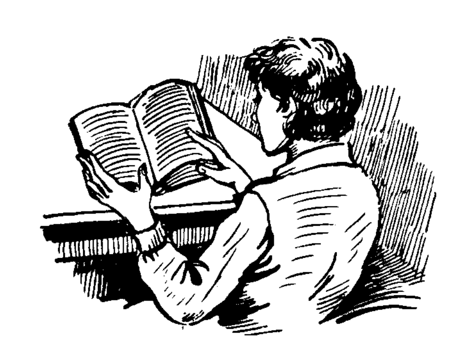
ــ « قل ما بدا لك يا عزيزى " أوليفر " ولا تخْش بأسًا ! » فقال « أوليفر » :

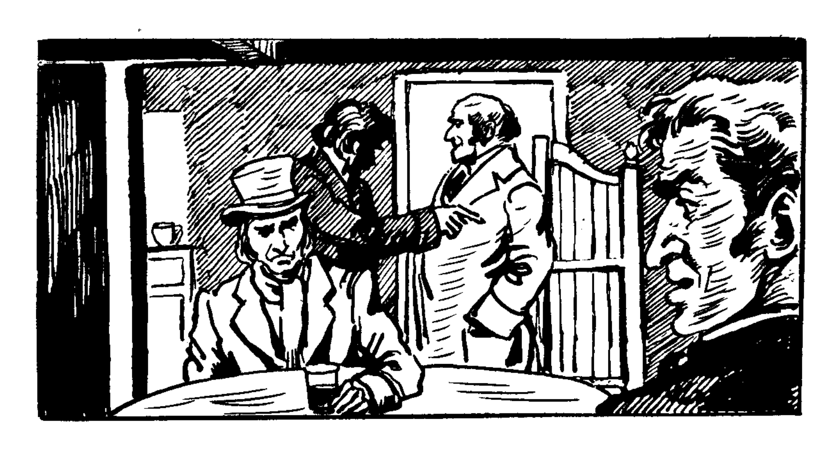
ــ « وددتُ لو علم ذلك المحسن الرقيق الفؤاد السيد " براون " ومدبِّرة منزله التى عطفت علىَّ ورعتنى ، أنِّى مقيمٌ عندكم سعيدٌ بضيافتكم » .

ــ « ما أطيَب عنصرَك يا " أوليفر " وما أنبَل شعورَك ! أنا لا أشك فى أنهما سيغتبطان لاغتباطك ، فاعلَمْ أن الطبيب الذى عالجك قد وعدنا أن يصحبك إليهما فى يوم من الأيام » .

ولم يطل انتظار « أوليفر » لليوم الموعود فقد جاءه الطبيب بعد أسبوع ، واستقلَّ معه مركبة الأسرة ، وذهبا يزوران السيِّد « براون » ولكنهما عادا من رحلتهما والأسى يملأ قلب « أوليفر » فقد وجدا المنزل خلْواً من السكان ، وعليه لافتة للإيجار ، وعلما أن السيد « براون » ومدبِّرة منزله قد رحلا منذ أربعة أسابيع إلى بلاد الهند الشرقيَّة .

ومرّت على « أوليڤر » بعد ذلك ثلاثة أشهر ، ذاق فيها أطيبَ ألوان السعادة فى صحبة الآنسة « وردة » والسيدة الوقور ، وكان « جيل » ومَن حوله من خدم يبالغون فى إكرام «أوليڤر» ويتفننّون فى الحفاوة به ، فقدرَّ « أوليڤر » جميلهم وجميلَ رجلٍ شيخ من جيرانهم ، نزل من قلبه منزلة حبيبة ، فكان يزوره كلّ يوم، ويلقّنه مختلف الدروس فى اللغة والحساب ومبادئ العلوم ، فتقدّم « أوليڤر » فى فترة وجيزة تقدُّمًا باهراً ، وجعل الكتاب جليسه وسميرَه حين لا يكون فى صحبة الآنسة « وردة » أو فى صحبة أحدٍ من سكان الدار ، وبلغ من شغفه بالدراسة وتحصيل العلوم أن أصبح لا يأوى إلى فراشه إلا فى ساعة متأخرة من الليل، ولا يترك الكتاب من يده إلا بعد أن يُثقِل جفنيه النعاسُ فلا يستطيعُ له دفعًا ولا مُغالبة





٨

جلس موظف الملجأ ذات يومٍ إلى مكتبه يصرّف بعض الشؤون ، فطاف به الخيال كل مطاف وانتهى إلى أمرٍ من الأمور فتنهد وقال :

— « لقد مضى شهران على ذلك الحادث، ويخيل إلىّ أن مدة هذين الشهرين أطولُ من دهر ! » .

ولعلّه كان يشير بذلك إلى زواجه ؛ فمَنْ كانت الزوجة الصالحة التى وقع اختياره عليها وبدأ يتأفف من عشرتها ؟ إنها كانت مدبِّرة الملجأ ، فقد ضَمن بذلك الزواج الطعامَ الهنىء والشراب المرىء فضلاً عن مبلغٍ من المال نقَدَتْه إيّاه بعد أن كانت قد ادّخرته فلسًا فوق فلْس .

وبعد أن تنهد الموظف أى السيّد « بمبل » خرج من الملجأ وطاف

على عدّة مقاهٍ حتى وصل إلى مقهى كان خالياً من الناس ، إلاّ من رجلٍ واحد انفرد بنفسه وأخذ يحتسى شيئاً من الشّراب ، فدخل « بمبل » المقهى ومرّ بالرجل وحيّاه ، فردّ عليه الرجل التحيّة غير حافل به ولا مكترثٍ له ، وكان يبدو على الرجل أنّه غريب عن المكان ، وأنه قادمٌ من سفرٍ بعيد فلا تزال ملابسه معفرة بالغبار . ولكنه لما أردف « بمبل » تحيته بذكر اسمه انتفض الرجل وقال :

— « لقد جئتُ إلى هذه المدينة لأبحث عنك . وها هى ذى ملائكة السّماء أو أبالسة الجحيم قد دفعتك إلىّ دفْعاً . . . جئت أتزوّد منك ببعض الأخبار ، ومهما بلغت من التّفاهة ، فلن أستأثر بها مجّاناً لوجه الله . . . فخذ هذه الدّفعة على سبيل المقدّم من أتعابك » .

ورمى إليه بجنيهين من الذهب ، فأخذهما « بمبل ودسّهما سريعاً فى جيبه ، وأصغى إلى الغريب يقول له :

— « ابحث فى ذاكرتك ... هيّا ... منذ نحو أحد عشر عاماً ... فى الملجأ الذى تديره الآن ... كان الوقت ليلاً ... ولم يكن المكان إحدى غرف الملجأ ... بل حجرةٌ حقيرة مهْملة ... » فقال « بمبل » :

— « لعلّك تشير إلى قاعة الولادة فى الملجأ » . فقال الغريب :

— « نعم . فقد وُلدَ فيها غلام . . . كفله الملجأ ثم دفع به عندما ترعرع إلى صانع توابيت ليعمل عنده . ولكنه فرّ منه إلى " لندن " كما هو

مظنون » . فقال « بمبل » :

— « أتقصد الغلام " أوليفر تويست " . . . ما عرفتُ غلاماً أكثرَ منه عناداً ولا أقبح خُلُقاً » . فقال الغريب :

— « ما جئتُ لأسمع أحاديثَك عنه ووصفك لأخلاقه . . . بل جئتُ أعرف ماذا حلّ بالمرأة العجوز التى عنيت بأمّ الطفل » .

— « ماتت منذ عهدٍ غيرِ بعيد » .

وكأنما اكتفى الغريب بما علم ، فنهض منصرفاً ، ولم يَدْرِ « بمبل » أفَرِحَ الغريبُ لموت المرأة العجوز أم استاء، ولكنّه أدرك بذكائه وفطنته أن كلّ ما يُحيط بتلك المرأة من أخبار وأسرار يهمّ الرجل الغريب، فتذكر أن زوجته كانت إلى جوار « سالى » العجوز عندما لفظت أنفاسها ، وأنها استودعتها سرّاً من الأسرار فأراد أن يستفيد من الظرف الراهن لعله يكسب منه بعض قطع أخرى من الذهب ، فاستوقف الغريب وقال له :

— « أعرف سيّدةً كانت إلى جانبها حين لفظت روحها ، وأعرف أنها أنهت إليها بسرٍّ خطير . . . » فقال الغريب :

— « وهل لى أن أقابل هذه السيدة ؟ » فقال « بمبل » :

— « يمكنك ذلك ولكن بوساطتى أنا. فإن شئتَ جمعتُك بها غداً » .

فقال الغريب :

— « حسن . أنتظركما غداً فى الساعة التاسعة مساءً . وإليك عنوانى » .

وأخرج الغريب من جيبه ورقة كتب عليها اسمه وعنوانه ، وانصرف

عاجلاً وتوارى عن الأنظار ، وبقى « بمبل » عدّة دقائق يطالع المكتوب فى تلك الورقة ، فعلم أن العنوان يشير إلى بعض الأحياء الحقيرة فى المدينة ، أمَّا اسم الغريب فكان « مونك » .

وفى الموعد المضروب من مساء اليوم التالى ، كان « بمبل » وزوجته فى مسكن « مونك » فاستهلّ الحديث قائلاً يخاطب السيّدة :

— « قال لى هذا السيّد إنك كنت إلى جوار تلك السَّاحرة العجوز ساعة استأثرت بها رحمة الله ، وإنها أفضتْ إليك بأمرٍ من الأمور ... »

— « وكم يساوى هذا الحديث الذى سأنهيه إليك ؟» فقال « مونك »:

— « إن رأيتُ فيه بعض الفائدة دفعتُ ثمنه عشرين جنيهاً » .

— « لن أبوحَ به بأقلّ من خمسة وعشرين جنيهاً تدفع الآن عدّاً ونقْداً ، سواءٌ استفدتَ منه أم لم تستفد ، على أننى واثقةٌ كل الوثوق أنك ستجده جليلَ الشأن والخطَر ، وتنتفع به الانتفاع الذى ترجوه » .

وبعد قالٍ وقيلٍ ومساوَمة ، نقدها « مونك » المبلغ فقالت :

— « لما ماتت تلك المرأة العجوز التى نسمِّيها " سالى " كنتُ الوحيدةَ إلى جوارها » . فقال « مونك » فى صبر نافد :

— « حسن . نعرف ذلك أتمّى حديثك » . فقالت زوجة « بمبل »:

— « لقد حدّثتنى عن امرأة فتيَّة حسناء ولدت غلاماً قبل بضع سنوات ، وهذا الغلام هو الذى عُرِفَ فيما بعد باسم "أوليفر تويست" ثم قالت لى

إنَّها سرقت شيئاً من أمّ الطفل » . فقال « مونك » :

— « أسرقته فى حياةِ الأم أم بعد وفاتها ؟» فقالت زوجة « بمبل » :

— « سرقته بعد مماتِها ، وكانت الأمّ قد أوصتها بأن تحتفظ به حتى تسلمه لابنها ، ولكنها باعته » . فصاح « مونك » بصوت ملؤه اليأس :

— « أين باعته ؟ ومتى ؟ ولمن ؟ » فقالت زوجة « بمبل » :

— « فى اللحظة التى حدَّثتْنى عن هذه السرقة انقلبت ميّتة » . فقال « مونك » غاضباً :

— « هذا كذبٌ صراح ! إنكما تخدعاننى وتخفيان عنى كلام المرأة لتبتزّا منى النقود ... فوالله لو عامتُ بكذبكما لأقتلنكما شرّ قتلة ! »

فقالت زوجة « بمبل » هادئةً ساكنة :

— « لم تزدْ على ما قلته لك حرفاً واحداً . . . وقبيل أن تلفظ أنفاسها ، رأيتها تضع يدها فوق ثيابى ، فلما ماتت وجدتُ كفَّها منطويةً على ورقة عتيقة » . فقاطعها « مونك » قائلاً :

— « وعلامَ كانت تحتوى ؟ » فقالت زوجة « بمبل » :

— « ما كانت تحتوى على شىء ... كانت وصلاً من بنك الرهون لحامله ... فاستردَدت أنا بعد يومين الحلية المرهونة ... » فقال « مونك »:

— « وأين تلك الحلية الآن ؟ » فقالت زوجة « بمبل » :

— « ها هى ذى » .



وأخرجت من جيبها كيساً صغيراً من الجلد ، ووضعته على المنضدة فاختطفه « مونك » وفتحه بيدٍ مضطربة فإذا فيه خاتم زواج وحلية ذهبية على شكل قلب تحتوى على خصلتين من الشعر ، وقد كتب على الخاتم اسم « أنييس » دون ذكرٍ لاسم الأسرة ، وحُفِرَ عليه تاريخ يرجعُ إلى قبل مولد الغلام بسنة واحدة ؟

وكان « بمبل » فى أثناء ذلك تتنازعه عواملُ عدّة وهو صامت لا يتحرّك ولا يتكلم ، فلمّا رأى بأمّ عينه تلك النتيجة اطمأنّ بالاً على حياته وحياة زوجته من انتقام الرجل ، وضمن الاستئثار بالمبلغ الذى قبضته زوجته . وسكت الثلاثة قليلاً ، ثم قطع « مونك » حبْلَ الصمت وقال :

— « سأريكما على الفور مصيرَ هذه الحلية » ؟

وعَمَدَ إلى زاوية من أرض الغرفة فضغط بيده على مُرَبّع خشبيّ ، وللحال انخفض من وسط الغرفة مربّعٌ كبير ، فسُمع تحته جرَيانُ الماء ، وكان المنزل قائماً على حافة النهر ، ومتّصلاً به بمجرى من الماء ، فقال « مونك » :

— « كان فى استطاعتى أن أفعلَ هذا الذى فعلتُ عندما كنتما جالسين فوق المربّع الذى انخفض الآن ، فتذهبا إلى أعماق النهر جثّتين هامدتين ، أمّا وقد تبيّنتُ صدقكما ، فالمروءة تتقاضانى أن أبقى عليكما ، وسأقذف

فى النهر بدلكما هذه الحلية اللعينة . وأمسك بكيس الجلد الذى يحتوى على الحلية والخاتم، وربطه بقطعة ثقيلة من الصُّلب ورماه فى المجرى وقال:

— « إلى الأعماق أيها الأثر الذَّميم ! . . . . »

وبدا الارتياح على وجوه الأشخاص الثلاثة كأنهم تخلَّصوا من كابوس مخيف، ثم شكر « مونك » السيد « بمبل » وزوجته وقال لهما وهو يودِّعهما :

— « حذارِ من التفريط بكلمةٍ واحدة ممَّا جرى الآن بيننا إن كنتما تؤثران الحياة » .

وقضى « مونك » ليلته فى ذلك المنزل ، ورحل فى الصباح إلى « لندن » وقصد على الفور إلى لقاء اليهودىّ العجوز فى منزله الثانى ، فتضايق من وجود الفتاة « نانسى » هناك ، وكان « سيك » وهو عليل طريح الفراش قد أرسلها تأتيه ببعض المال من زعيم العصابة فتدارك اليهودىّ العجوز الموقف وقال يخاطبها :

— « ما عليك . إن القادم علينا هو أحد تلاميذى . » ثم التفت إلى « مونك » وقال :

— « أجئتنى ببعض الأنباء ؟ » فقال « مونك » :

— « بأنباء مهمَّة . . . ولكن . . . . »

وأشار إشارةً خفية إلى اليهودىّ العجوز ، ففهم أنه لا يريد الكلام على مسمعٍ من الفتاة ، وخشى إن هو أوعز إليها بالانصراف أن تطالبه

بالمال الذى جاءت من أجله ، وقد كان فى نيته أن يخفض المبلغ إلى النصف ، أو أن يساومها على أقلّ منه ، فتأبَّط ذراع « مونك » وخرج به من الغرفة وعلمت « نانسى » من وقع أقدامهما على السلم أنهما يَصْعَدان إلى الطبقة العليا ، فانتظرت لحظةً قصيرة حتى زال وقْعُ الأقدام، فخلعت حذاءها ، وغطَّت رأسها وذراعيها بالجانب الخلفىّ من ثوبها ، وصعدت إلى حيث كانا، ووقفت وراء الباب تتنصَّت إلى ما يقولان ، وقد كتمت أنفاسها ، وعندما انقطع حديثُ الرجلين ، عادت فى سرعةِ البرق إلى الغرفة التى كانت فيها ، وسمعت « مونك » يخطو إلى خارج المنزل . فلما عاد اليهودىّ العجوز إليها ، رآها تلبس قبعتها وتهمّ بالرحيل فقال لها :

— « يا لله من شحوبِ وجهك واصفرارك يا "نانسى" فماذا فعلتِ ؟ »

— « لم أفعل شيئًا وقد سئمت من الانتظار . . . هاتِ النقود » .

جاءت الفتاة تطلب خمسة جنيهات فانتهى الأمر باليهودىّ العجوز إلى أن ينقدها أربعة جنيهات وخمسة شلنات وخمسة بنسات ، فأخذتها ورحلت عن ذلك البيت الجهنَّمى ، وكانت فى أثناء الطريق تفكر فى أمر من الأمور وتتميَّز غيظًا من عجزها عن القيام به .

وصلت إلى المنزل الذى تعيش فيه مع « سيك » المجرم الأثيم ،فوجدته صريعَ الحمَّى فجلست إلى جانب فراشه تسعفه بما يطلب ، وهى نَهْبٌ موزَّعٌ للأفكار والخواطر ، وللجزع والقلق الشديد .

وهبط المساء بسكونه وظلامه ، وتضافر النوم والحُمّى على « سيك » ولا سيما المخدّر الذى سقته إياه « نانسى » فغرق فى غيبوبة طويلة ، فأقبلت « نانسى » عليه بعد قليل ، وهزّته فما أفاق ، فقبلته فى جبينه وخرجت من المنزل ، وأخذت تذْرَع الشوارع حتى وصلت إلى حيّ من الأحياء الرّاقية ، ووقفت عند منزل من منازل السّراة .

اقتربت من باب المنزل وطرقته فى خوف وحذر ، ففتح لها خادمٌ أنيقُ البزّة ، فطلبت منه أن تقابل الآنسة « وردة » فتردّد الخادم طويلاً وهو ينظر إلى الثياب الزرية التى ترتديها « نانسى » فما كانت سيدته ممن يقابل أمثال تلك الفتيات ، وبعد إلحاح وإصرار ، وتوسّلٍ وتضرّعٍ ، كانت « نانسى » فى حضرة الآنسة « وردة » .

ولم تكن الآنسة « وردة » إلا تلك الفتاة التى استضافت « أوليڤر » فى بيتها الريفى الجميل ، وحنت عليه حنوّ الأمّ على طفلها ، وكانت هى والأسرة ومن معها من خدم قد انتقلوا فى مطلع الشتاء إلى « لندن » وانتقل معهم بطبيعة الحال صاحبنا « أوليڤر »

عجبت الآنسة « وردة » من مظهر الفتاة « نانسى » ومن إصرارها على مقابلتها ، فقالت لها بلهجةٍ كلها رقّة ولطف وعذوبة :

— « أنا " وردة " يا آنسة فاذكرى حاجتك » .

فغلب الاضطراب على « نانسى » وطفقت تبكى وتنتحب ، والآنسة

« وردة » ترطب خاطرها حتى تغلّبت على اضطرابها وقالت :

— « أنا يا آنسة تلك الفتاة التى حملت " أوليڤر " إلى عصابة اللصوص والمجرمين . . . إن جرمى عظيم ، ولستُ أدرى هل يمكّنّى الله من التّكفير عنه . . . » فقالت « وردة » مدهوشة :

— « أنت ؟ وكيف طاوعك قلبك على ذلك ! » فقالت « نانسى » :

— « وأنا يا سيدتى التى عُهِدَ إليها فى اصطحابه إلى الأثيم الأكبر الذى سطا هو واثنان من زملائه اللصوص على منزلك فى الريف . . . »

— « وما فائدة هذا الاعتراف يا آنسة ؟ »

— « ارحمينى يا سيّدتى يرحمك الله ، فأنا أعيش فى عذاب أليم من وخز الضمير ، ومن حياة أجرّر أثقالها بين طغمةٍ من الأشرار . . . »

— « وما الذى يحملك على البقاء بين هؤلاء الناس؟» فقالت« نانسى»:

— « لو فارقتهم قتلونى شرّ قتلة ، اللهمّ إلا أن أشِيَ بهم وأكشفَ أمرهم فيكون جزاؤهم أعواد المشانق ، وفى مقدمتهم رجل لا أستطيع عنه افتراقًا . . . ارثى لحالى يا سيدتى واشكرى الله أن رَعَت السماء طفولتك وحداثتك وأحاطتك بحنان الأهل وبِرّ الوالدين . . . »

فدمعت عينا الآنسة « وردة » وفعل كلامُ الفتاة فى نفسها فعْلَه ، وشرد ذهنها يفكر فى مصائب الناس وأحوال الأشقياء التّاعسين ، ولكن « نانسى » انتشلتها من تفكيرها وهى تقول :

ـ « تحدّيتُ الأخطار يا آنسة ، وجئتُ أعلمك بأشياء تتعلّق بالغلام " أوليفر " فقد يستفيد منها ويكون فى ذلك كفّارة لى وراحة بال . . . أتعرفين رجلاً يدعى " مونك " ؟ » فقالت « وردة » :

ـ « كلا ! » فقالت « نانسى » :

ـ « إنه إذن الاسم الذى يتنكّر به فى عصابتنا . والرجل يعرفك ويعلم أنك فى " لندن " وقد سمعته يدلى بعنوانك ، فاستطعت أن أهرَعَ إليك . . . لقد استرقتُ السّمْعَ ذاتَ ليلةٍ إذ كان يتحدّث مع زعيم العصابة ، وهو يهودىّ عجوز يدعى " فاجن " فعلمت أنه وعده بمبلغ من المال إذا عثر على الغلام " أوليفر " وجعل منه لصًّا أثيمًا » .

ـ « ذاك طلبٌ عجيب ! » فاستأنفت « نانسى » الكلام وقالت :

ـ « وعاد أمس إلى الزعيم واختليا معًا ، وتلصّصت عليهما وسمعت " فاجن " العجوز يقول له : " وهكذا تخلصت من الدليل الوحيد الذى يثبت هوية الغلام ورميته فى أعماق النهر . . أما المرأة العجوز التى تسلمت ذلك الدليل من أمه فهى من سكان القبور . . . " وسمعت الرجل يجيبه : " أجل وحبّذا لو نقدر أن نجرّر الغلام فى سجون "لندن" ، حتى إذا ظهرت يومًا صورة للوصية التى كتبها والده لم يستطع أن ينتفع بها . . . » فقالت « وردة » :

ـ « ما معنى هذا الكلام ؟ ! » فقالت « نانسى » :

ـ « لستُ أدرى يا سيّدتى ، ولكننى سمعته بعد ذلك يقول لليهودى العجوز : إن جميع الأشراك التى نصبتها فى حياتك لا تعادل الشّرك الذى سأنصبه فى تصيُّد أخى الصغير " أوليفر " » فصاحت « وردة » :

ـ « أهو أخوه ؟ ! » فقالت « نانسى » :

ـ « هذا كلامه بحذافيره يا سيدتى . . . ثم إنّه عندما تحدّث عنك وعن السيدة العجوز التى تعيشين معها وتدعينها خالتك ، قال إن السماء والجحيم يتآمران عليه ما داما قد ساقا الغلام إليك ، ولكنه عاد فضحك طويلاً وقال : آه لو تدرى " وردة " مَنْ ذلك الغلام الذى تُؤويه ؟ »

ونهضت « نانسى » تريد الانصراف فوقفتها « وردة » وقالت :

ـ « وماذا عسايَ أن أفعل بهذه الأشياء ؟ وكيف أستفيد منها ؟ ومتى أراك ثانية أو أين ألقاك ؟ » .

ـ « استشيرى يا آنسة أحد النُّصَحاء المخلصين . . . أما أنا فسوف تجدينى على جسر " لندن " فى مساء كل يوم أحد من الساعة الحادية عشرة إلى منتصف الليل ، هذا إذا بقيتُ على قيد الحياة ! » .

وشاءت الآنسة « وردة » أن تنفح « نانسى » ببعض المال ، فأبت هذه كلّ الإباء ، فاقتربت « وردة » منها وشدّتْ على يدها متأثّرة شاكرة ، فاغرورقت عينا « نانسى » بالدموع ، فتلك هى المرة الأولى التى يصافحها فيها إنسانٌ شريفٌ مستقيمٌ طاهرُ الذّيْل . . .



٩

كان الليل قد انتصف عندما دخلت الآنسة « وردة » غرفتها ، والاضطرابُ يقيمها ويُقعِدها ، فقد سمعت من الفتاة « نانسى » أشياء أذهلتها وعصفت بقلبها ، فاستلقت إلى سريرها لعلَّ النوم ينقذها من ثَوَران نفسها وقلقها البالغ ، ولكن هيهات . . . استعرضت فى خاطرها الأشخاص الذين تستطيع أن تبوح لهم بذلك السر الخطير ، فما قرّ قرارُها على واحدٍ منهم فبدأت أولاً بطبيب الأسرة ، وكان فى ضيافتها ، فقد دعته أن يصحبهم إلى أحد شواطئ البحر ، وكان السفر مقرّراً بعد يومين ، فلم ترتح إلى مباحثته بهذا الأمر لما تعرفه من طبعه الجافّ ، فسوف يرى فى كل هذا أضغاثَ أحلام ، وتذكرت فتًى يدعى « هنرى »

هو ابن الخالة التى تعيش معها ولكنها تردَّدت فى استدعائه إليها لأسبابٍ عاطفيَّة لا تريد إثارتها ، فما زال الفكر يطرحها كلَّ مطرَح حتى غلب عليها النُّعاس والتعب فنامت . ونهضت فى الصباح مهمومة . وعادت إلى تفكيرها وقضت فيه ساعة أو ساعتين ، وإذا بالغلام « أوليڤر » يدخل عليها مضطربًا وكان قد عاد من نزهةٍ فى شوارع « لندن » صحبه فيها « جيل » فخفَّت إليه « وردة » وقالت :

— « مابلك يا ” أوليڤر “ ؟ ماهذا الاضطراب ؟ » فصاح وهو يَلْهثُ :

— « عزيزتى ! . . . لقد رأيتُه . . . نعم رأيتُ ذلك الكريم الذى كان قد استضافنى عنده . . . رأيتُ السّيد ” براون “ . . . »

— « وأين رأيته ؟ »

— « رأيتُه فى أحد الأحياء وقد نزل من المركبة ودخل المنزل ، فغلبنى الاضطراب فلم أستطع أن أُهْرَعَ إليه ، غير أن ” جيل “ قد سأل عنه فعلم أن هذا مسكنه وإليك العنوان » . ودفع « أوليڤر » إليها بورقةٍ كتب فيها عنوان السيد « براون » فقرأتها وقالت :

— « سأصحبك يا ” أوليڤر “ إلى هذا السيد الكريم ، ولكن أَمْهِلْنى قليلاً من الوقت حتى أرتدى ثيابَ الخروج ، وأخبر خالتى بأننا ذاهبان إليه » .

وما هى إلا دقائق معدودات حتى كانت الآنسة « وردة » و « أوليڤر »



يستقلا ن المركبة فى طريقهما إلى منزل السيد « براون » فلما بلغاه قالت الآنسة « وردة » للغلام :

— « ابقَ أنتَ فى المركبة لأمهِّد لك سبيلَ اللقاء » .

ونزلت الآنسة « وردة » من المركبة وسارت توًّا إلى المنزل ، وكانت بعد قليل وجهًا لوجه مع السيد « براون » فتطلَّعت فيه فإذا هو رجل وقور جميل السيماء ، قد وخط الشيب رأسه فبادرته قائلة :

— « جئتُ يا سيدى أحدّثك عن غلام كنتَ قد غمرته فيما مضى بعطفك وحنانك . . . عن غلامٍ اسمه " أوليفر تويست " »

فاهتزّ الرجل عند سماعه هذا الاسم وقرأت الآنسة « وردة » فى عينيه الأسف والأسى ، فعلمت أنه يُضْمِر له فى قلبه ذكرى أليمة ، فقصّت عليه قصّة الغلام دون أن تذكر له شيئًا عمّا باحت لها به الفتاة « نانسى » ، فضاءت قسمات السيد « براون » فرحًا وقال :

— « وأين هو الآن ؟ هلاَّ جئتِنِى به يا آنسة ! » فقالت :

— « إنه فى المركبة على مقربة من الباب ينتظر الأمر بالدخول »

وأسرع السيّد « براون » ينزل درج السلّم أربعًا أربعًا ، وعاد بعد قليل ممسكًا بيد « أوليفر » والدنيا لا تسعه من شدّة الفرح ، ثم نادى مدبِّرة المنزل ، فجاءت دون أن تعلم أية مفاجأة تنتظرها ، فلم يكد بصرها يقع على « أوليفر » حتى هجمت عليه توسعُه تقبيلاً

وتركت الآنسة « وردة » المدبّرة العجوز و « أوليڤر » يتناجيان ويتبادلان القُبُلات ، وطلبت إلى السيد « براون » أن تحدّثه على انفراد ، فأطلعته على كلّ ما علمت من الفتاة « نانسى » فساورته من تلك الأنباء دهشة مشوبة بالقلق ، وتطوّع أن يفاتح هو طبيب الأسرة وخالتها بالأمر ، ويتشاوروا جميعًا فى هذه المسألة الخطيرة .

ولم يُضع السيّد « براون » الوقت ، فصحب الآنسة « وردة » إلى منزلها ومعهما « أوليڤر » وهناك تبادل الرأى مع الطبيب فكان من رأى هذا إبلاغ رجال الأمن بالحادث بل بالحوادث ، ووضع الأمر فى أيديهم . غير أن السيد « براون » لم ير هذا الرأى وقال :

— « لو شنق هؤلاء المجرمون كلّهم لضاع الأثر الذى يجب أن نسعى إليه ، وهو معرفة أهل " أوليڤر " والتمكّن من استرجاع ميراثه ... ويخيّل إلىّ أن مفتاح هذه الأسرار كلها هو المسمّى " مونك " فلو شكوناه إلى السلطات ما فُزْنا بكبير طائل ، فليس فى يدنا أىُّ دليلٍ على أنه من رجال هذه العصابة ... وهَبْهُ حكم عليه بالسجن بتهمة التشرد ، فسوف يغيّب سرُّه معه فى غياهب السجون ، فالرأى أن نحتال للقبض عليه حين يكون محاطًا برجال العصابة ، وذلك دون إبلاغ رجال الشرطة ... وليس لنا إلا تلك الفتاة التى جاءت إلى الآنسة « وردة » وعلينا أن ننتظر إلى يوم الأحد » .

وافق الطبيب والآنسة « وردة » وخالتها على هذا الرأى ، ولكن الطبيب اشترط أن يستشير فى الأمر صديقًا حميمًا له يتكل على حصافته وحسن رأيه ولم يكن ذلك الصديق إلا السيد « هنرى » ابن خالة الآنسة « وردة » فلم يمانع السيد « براون » ولا الآنسة « وردة » وإن اصطبغ وجهها بكثير من الاحمرار .

كان اليومُ يومَ الثلاثاء ، فانتظروا جميعًا يوم الأحد بفارغِ الصبر ، وعندما دقّت الساعة الحادية عشرة تناولت « نانسى » قبعتها وهمّتْ بالخروج وكان « فاجن » اليهودىّ العجوز فى منزل « سيك » يتجاذب وإيّاه أطراف الحديث ، فلفت نظره أن « نانسى » تهمّ بالخروج فقال « سيك » حانقًا :

— « إلى أين فى مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ » فقالت « نانسى » :

— « لن أغيبَ طويلاً » . فأثار الغضب ثائرة « سيك » فقال وهو يزمجر :

— « ما هذا الجواب ؟ قولى إلى أين أنت ذاهبة ؟ » فقالت « نانسى » :

— « لا أعرف إلى أين تصلُ بى قدماى ... قلتُ إنى لن أغيبَ طويلاً » . فقال « سيك » :

— « كلاّ لن تخرجى . والويل لك إن خالفتِ أمرى » . فاستشاطت « نانسى » غضبًا وصاحت بأعلى صوتها :

— « دَعْنى أخرج، فروحى تكاد تُزْهقُ فى هذا المنزل ... إنى فى حاجة إلى استنشاق الهواء! » ومشت إلى الباب تحاول الخروج، غير حافلة بنهى « سيك » فهجم عليها هجومَ الوحش الضَّارى، وجذبها عن الباب، ورمى بها إلى داخل الغرفة، فوقعت إلى الأرض وهى تصرخ من الألم

وسرّ اليهودى العجوز أن يرى « سيك » يستخدمُ سُلطانه على الفتاة ولو بطريقة وحشيّة، فقد كان منذ تصدَّت للدِّفاع عن الغلام « أوليفر » تخامره الظُّنون فى إخلاصها للعصابة فقام وحيَّا « سيك » وشفع تحيتَّه بنظرةٍ أقرَّه فيها على عمله وعُدْوانه، وقفل راجعًا إلى منزله

غير أنه لم يسلكْ الطريق المؤدّى إلى منزله، بل عرَّج على حانة حقيرة مزدحمة بالمتسكعين واللصوص، واختار منهم واحداً يسمَّى « وليم » وعهد إليه فى مراقبة الفتاة « نانسى » وإبلاغه عن حركاتها وسَكَنَاتها خارج منزلها، وعن الأشخاص الذين تقابلهم أو تحدّثهم، وأوصاه أن يجهد فى سماع أحاديثها معهم

وقضى « وليم » ستة أيام مسمَّراً فى مكانه على مقربة من منزل «نانسى»، متنكّراً فى زِىّ حَمّال، فذهبت مراقبته سدّى، فما خرجت الفتاة من المنزل ولا حتى أطلت برأسها من إحدى النوافذ وفى اليوم السابع وكان يومَ أحَدٍ، شهد « سيك » يخرج قُبَيْل العصر، ويسير فى عكس الشارع الذى كمن فيه، وهو مطرقُ الرأس مشغولُ الذّهن، فلمع

بصيصٌ من الأمل فى قلب الرّقيب، وتوقّع أن يرى « نانسى » تغادر المنزل بعد قليل، ولكن خاب ما توقع فقد مرّت ساعات طويلة وبابُ المنزل مُغْلَقٌ على مصراعيه، ولم يتخطَّ عتبته أحدٌ من البشر، حتى إذا أشرفت الساعة على الحادية عشرة، انفتح الباب وخرجت منه « نانسى » وسارت فى اتجاه مكمنه، فمشى فى ذلك الاتجاه متمهلاً وتركها تسبقه ببضعة أمتار، ثم تبعها فى حرص شديد خوفَ أن تفلت منه أو تغيب عن أنظاره .

ودامت المطاردة نحو خمسٍ وأربعين دقيقة، وصلت « نانسى » بعدها إلى جسر « لندن » فوقفت قليلاً تجيلُ بَصَرها فى أطرافِ الجسر، باحثةً مدقّقة، كأنها على ميعاد مع بعض الأشخاص، واستطاعت أن ترى فى ذلك الظلام الدامس رجلاً وامرأة واقفين عند منتصف الجسر، ومستندين إلى دَرابزونه يحدّقان فى كلّ من يجتاز الجسر كأنهما هما أيضًا على موعدٍ مع أحدِ القادمين . ولم تفت الجاسوس حركات الأشخاص الثلاثة، فتبع « نانسى » مسرعًا واقترب منها عندما رآها قد وصلت إلى المرأة والرجل وسمعها تقول لهما :

— « لا أستطيع أن أحدّثكما هنا فتعاليا إلى تَحْتَ الجسر » .

فسبقهم الجاسوس، ونزل درجات السلم المفضى إلى ما تَحْتَ الجسر، واختبأ وراء جدارٍ من الجدران. وأقبل الثلاثة الآخرون فوقفوا غير بعيد

منه ثم قالت المرأة للفتاة « نانسى » :

— « لقد انتظرناك عبثًا يوم الأحد الماضى فلم تحضرى »

— « لم أستطع الحضور ، فقد منعنى من الخروج وضربنى ضربًا مبرّحًا » . فقال الرجل :

— « من هذا الذى يضرب النساء ويمنعهنّ من الخروج ؟ » فقالت :

— « لقد حدّثت عنه الآنسة " وردة " فهى تعرف أىّ سلطان له علىّ » . فقال الرجل :

— « حسنًا . لنقتصد فى الوقت . مطلبُنا يا آنسة أن تدلّينا على هذا الذى يسمى "مونك" فيخيَّل إلينا أنه مفتاح سرّ القضية المتعلقة بالغلام » .

— « وهَبْه أصرَّ على الصَّمْت . . . » فقال الرجل :

— « لا بدَّ إذن أن تدلّينا على زعيم العصابة اليهودىّ العجوز »

فارتجفت « نانسى » ثم قالت :

— « حَذارِ يا سيدى ! إنه أحد أبالسة الجحيم ... على أننى أرجو أن تذكر الآنسة وَعْدَها إيّاى بأن يبقى رجال الأمن والقضاء بعيدين عما تسعون فيه ، فأنا والرجل الذى أعيش معه سنكون أوّلَ من يُشْنَق لكثرة ما اجترمنا من جرائر » . فقالت الآنسة « وردة » :

— « لم أنس الوعدَ ولن أنقضَه » .

وأخذت « نانسى » تصف لهما الحانة التى تعوّد « مونك » أن يرتادها ،

وتذكر لهما شكله وصفاته البدنية وعلاماته المميزة ، فكان الرجل يستمع لها وهو بادى الاضطراب ، وأتمَّت « نانسى » حديثها ، وكان كله أشبه بالهمس بحيث غاب بعضه على الجاسوس المتلصّص المسترق للسَّمْع وقالت :

— « وهناك علامةٌ فارقة تساعد على معرفته . . . ففى أعلى عنقه...»

فقاطعها الرجل قائلاً :

— « لطخة حمراء من أثر احتراق ... » فقالت « نانسى » مدهوشة :

— « أجل . . . أتعرفه يا سيدى ؟ » فتنهَّد الرجل وقال :

— « إن الأوصاف التى ذكرتِها عنه ، تجعلنى أعتقد أنى أعرفه ... ولكن قد يتشابه الناس » . وسكت الرجل قليلاً ثم قال :

— « لقد خدمْتِنا يا آنسة خدمةً جُلَّى فماذا نكافئك ؟ »

— « أشكرك يا سيّدى... إن راحة ضميرى هى المكافأة الكبرى » .

فقال الرجل بلهجة كلها رقّة وحنان :

— « إنى لألمح صفاءَ نفسك يا آنسة فإن كنتِ أخطأتِ فيما مضى فلا تزال لديك فسْحةُ المستقبل تكفّرين فيها عن أخطائك ، وتعيشين حرة كريمة شريفة . . . فتعالىْ معنا الآن ، وقبل انبلاج الفجر نبعثك إلى بلدٍ قصىّ تختارينه من بلاد العالم ، ونزوّدك بالمال والرعاية . . . »

فقاطعته « نانسى » قائلة وهى تكاد تنتحب :

— « شكراً لك يا سيّدى وألف شكر . . . لقد خطوتُ فى حياتى

الأثيمة الخطوات الفِساح ، فلا سبيل إلى النّكوص» . وشاءت الآنسة «وردة» أن تقدّم لها صُرّة من المال ، فاعتذرت « نانسى » عن قبولها وقالت :

— « سامحينى يا سيدتى إن أنا اعتذرتُ عن قَبولِ مِنْحتك الكريمة ، فما قمتُ بما قمتُ به بُغْيةَ اكتساب بعض المال ، ولكن حسبى أن تَهَبينى قُفّازك أو منديلك ، أحتفظ به مدى الحياة أثراً كريمًا من نفس كريمة» .

فخلعت الآنسة « وردة » قُفّازها ، وأعطتها إيّاه ، ثم ودّعتها وتأبّطت ذراع الرجل الذى كان يصحبها ولم يكن إلا السيد « براون » وانصرفا وبقيت « نانسى » هنيهة وهى تَجهش بالبكاء ، ولكنها رجعت إلى نفسها بعد قليل وصعدت درجات السلّم إلى أعلى الجسر ، ولقد انتظر الجاسوس حتى تبتعد ، فبرح مكمنه وطار إلى منزل اليهودىّ العجوز والدهشة تملأ جوانحه .

وكان اليهودىّ العجوز قابعًا فى منزله لم يغمَض له جَفْن ، وهو يترقّبُ مجىء الجاسوس ، لينفضَ له ما رأى وما سَمع ، وكانت هذه حاله طولَ الأيام السبعة الماضية ، ولشدّ ما اضطرب فرحًا أو ترحًا عندما وفد عليه جاسوسه فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وبسط له خبر اجتماع « نانسى » تحت جسر « لندن » برجل وسيّدة كانا فى انتظارها ، وأطلعه على جميع ما سمع من أحاديثهم ، فشكره اليهودىّ العجوز ووهبه الجُعْلَ المتّفق عليه ، وسمح له بالنوم فى الغرفة المجاورة ، والبقاء فيها حتى الصّباح .

وخلا اليهودىّ العجوز إلى نفسه يعمل الفكر فيما سبّبته له « نانسى »

من مشاكل لن تقف عند ضياع مغنمه ، بل قد تتعدّاه إلىٰ تعريضه لخطر السجن والمِشْنقة . وتطلّع عَرَضًا إلى باب الغرفة فرآه قد انفتح ، ودخل منه « سيك » متجهّم الوجه ، ثائرَ النفس ، فاستهلّ كلامه مع العجوز بصوتٍ يقصفُ قصفَ الرعد وهو يقول :

— « أين نانسى » ؟ فقال اليهودىّ العجوز :

— « أنا أحقّ منك بهذا السؤال . . . أليستْ تعيش معك تحت سقفٍ واحد ، فكيف فرّطت فى مراقبتها ؟ » فقال « سيك » :

— « حَذارِ أيّها العجوز الوَقِح من غضبى وانتقامى ! إنك تتآمر و " نانسى " علىّ ، ولكنك تعرفنى حق المعرفة وتعلمُ أن القتل أسهلُ ما ترتكبه يداى ، فالويل لك من انتقامى » . فقال اليهودىّ العجوز :

— « عَدّ عن هذا الغضب ، واعلمْ أن "نانسى" تتآمرُ علينا جميعًا ، وسوف تجرّنا إلى حبال المشانق » . فقال« سيك» وقد ازداد هياجه وغضبه :

— « أنتَ كذّاب أشِر أيّها العجوز اللئيم . . . »

— « أأنتَ قادمٌ الآن من منزلك ؟ » فقال « سيك » :

— « كلا ! ولكننى عرّجتُ على المنزل بعد منتصف الليل بقليل ، فما وجدت " نانسى " فيه وقد حرّمت عليها الخروج منه » . فقال اليهودى العجوز فى هدوء مُرْعِبٍ قاتل :

— « سأبرهنُ لك على أنى لستُ الكذّاب الأشر ، وسأجعلك تقتنع

أن " نانسى " ستُودى بنا جميعاً إلى التَّهْلكة . . . »

وانفلتَ إلى الغرفة المجاورة ، وأيقظ جاسوسه ، ثم جاء به وهو يفرك عينيه من شدّة النّعاس ، وقال له بلهجة الآمر النّاهى :

ـ « قل لصديقى " سيك " كلَّ ما أخبرتنى به عن " نانسى " وعن أحاديثها مع من لقيتهما الليلة تحت جسر " لندن " ولا تُخْفِ منها حرفاً واحداً » . فكرّر الجاسوس الرّواية التى كان رواها لليهودىّ العجوز ، فلم يكد يصل إلى نهايتها حتى استدار « سيك » على عَقِبَيْه ، وخرج مسرعاً ، قاصداً منزله ، فوجد « نانسى » تغطّ فى النوم ، فأيقظها بجفاء وغلظة ، وشدّد عليها النّكير فى السؤال والاستجواب ، فما ردّت عليه بجواب تقتنع به نفسه ، فوثب إليها وثبةَ الذّئب الغادر ، وشدّ على عنقها بيديه الأثيمين حتى فاضت روحها وانقلبت جثّة هامدة . . .





١٠

غربت الشمسُ ذاتَ مساء ، فوقفت مركبة من مركبات الأجرة عند دار السيّد « براون » فنزل هذا منها ، ونزل بعده رجلان بل عملاقان ، وهما قابضان على ذراعى رجلٍ ثالث ، فأدخلاه عَنْوَةً إلى المنزل . ولم يكن هذا الرجل الثالث إلا « مونك » .

دخل « مونك » المنزل مكرهاً ، وقاده السيد « براون » إلى مكتبه ثم قال يخاطب العملاقين الواقفين إلى جانبه :

ـ « اتركانا وحدَنا ، وقفا عند الباب وكونا على مسمع مَن صوتى » .

فنفّذ الرجلان أمر « براون » فما كادا يخرجان حتى قال « مونك » :

ـ « يدهشنى يا سيّدى وأنتَ صديقٌ قديم لوالدى ، أن تعاملنى

بمثل هذه الخشونة والقسوة ! » فقال « براون » :

ـ « أمَّا وقد ذكرتَ الصداقة القديمة التى كانت تربطنى بوالدك ، فاعلم أن تلك الصداقة وذلك الأمل البسَّام الذى كان يملأ جوانحى فى أيَّام الشباب ، ويقرّبنى من شقيقته التى اختارها الله إلى جواره فى اليوم الذى كانت ستُزَفّ فيه إلىّ ، كل هذا قد جعلنى أخلص له الود حتى مماته مع ما ارتكب من أخطاء ... وكل هذا يحملنى اليوم على أن أرأف بك يا " إدورد ليفورد " وأتناسى أنك لطختَ اسم والدك بالعار والشَّنار » .

فقال « مونك » (وسنبقى له هذا الاسم) :

ـ « ثمَّ ماذا ؟ » فقال : « براون » حزينًا أسيفًا :

ـ « إن لك أختًا . . . » فقاطعه « مونك » قائلاً :

ـ « أنتَ تعلم يا سيِّدى أنْ ليس لى أخ ، وأنى وحيد أبوَىَّ . . »

ـ « أنا أعلمُ أنَّك وحيدُ أبويك من زواجٍ شقىٍّ تاعس ، وأنَّهما بعد عدّة سنوات مملوءة بالشّجار واليأس والحقد ، افترقا لأن مذهبهما لا يُجيز لهما الطلاق ، فسعدتْ هى وكانت أصغرَ منه بعشر سنوات بحياتها الحرّة ، وشقى هو فعاش حزينًا جريحَ الفؤاد . . . » .

ـ « ما لى أنا وهذه الأنباء ؟ أيمنع ذلك أن أكون وحيدَ أبوىّ ؟ ! »

ـ « على رِسْلِك ... سأتم حديثى وإن كنتَ لاتجهلُ ما سأقول ... تعرّف والدك إلى ضابط أرْمَل كان له ابنتان إحداهما جميلة كالصباح

فى التاسع عشر من ربيعها ، والثانية لم تكن سنُّها تتجاوز السادسة ... وبعد سنة واحدة من ذلك التعارف أحب والدك الابنة الكبرى وأحبته ووعدها بالزواج . . . »

ثم سكت لحظةً واستأنف حديثه وقال :

ـ « وتُوُفّى فى هذه الأثناء بمدينة "روما" نسيبٌ شيخ تاركًا لوالدك كل ثروته ، فسافر إلى " روما " وأصيب هناك بمرض عُضال ، فلحقت به والدتك وكانت تقطن " باريس " وصحبتك معها إليه ، فتوفّى والدك غداة وصولكما إلى المدينة ، ولم يترك له وصيّة فعادت الثروة كلها إلى والدتك وإليك » .

وهنا تنفَّس « مونك » الصُّعَداء ، وظن أن حديث السيِّد « براون » سينتهى عند هذا الحد ، ولكنه فوجئ بمحدّثه يتابع كلامه ويقول :

ـ « وقبل أن يرحل والدك إلى " روما " جاء يزورنى ، وترك عندى صورة كان قد رسمها هو نفسه لشقيقته التى كنت سأتزوجها وكان الألم والندم قد هدّا ركنه ، وأخبرنى أنه ارتكب وزراً ثقيلاً يلطخ بالعار سمعة أسرةٍ كريمة ، وأنهى إلىّ أنه سيصفّى ثروته وميراثه ويحولهما إلى مال سائل ويترك لك ولوالدتك جانبًا منه ثم يهجر البلاد إلى مكان بعيد ، ثم وعدنى بأن يكتب إلىّ ويطلعنى على جميع أعماله . . . ولكنه لم يفعل وكانت زورته لى هى بيننا اللقاء الأخير . . . »

واستراح السيد « براون » قليلاً ثم قال :

— « ونعاه النُّعاة ، وانتشر خبر موته ، فقصدت بعد مدّة وجيزة إلى مسرح حبّه الأثيم فعلمت أن أسرة الضابط قد هجرت المدينة منذ أيام ثلاثة ، وليس مَنْ يعرف إلى أين اتّجهت . . . » فتبسّم « مونك » منتصراً واستأنف السيد « براون » الحديث وقال :

— « ولمّا رمى القدر أخاك فى طريقى غلاماً هزيلاً يرتدى الأسمال ، آويته ورعيته ، وأدهشنى الشبه الذى رأيته بينه وبين الصورة التى تركها والدك عندى ... ثم اختُطف من عندى وأنت تعلم كيف اختُطف ولماذا اختطف ؟ » فقال « مونك » فى شىء من العناد والوقاحة :

— « المهمّ يا سيّد "براون" أنك لا تمتلك دليلاً واحداً أدان به . وإنّى أتحدّاك أن تبرز ذلك الدليل !» فقال « براون » واثقاً مطمئناً :

— « سوف نرى . . . فاسمع الآن بقية الحديث . . . كنتُ أعلمُ أنّ والدتك قد توفّيت ، وأنك أنت وحدك مَنْ يستطيعُ أن يُميط اللثام عن نَسَبِ الغلام . . . فبحثتُ عنك ، فعرفت أنك رحلتَ إلى الهند الشرقية ثم عدتَ منها ، ولكننى لم أستطع أن أعرف عنوانك فى "لندن" . فقد قيل لى إنك متنقّلٌ من مكان إلى مكان ، فلا تُرَى إلاّ مع عُشَراء السوء كما كنتَ فى حداثتك ومطْلَعِ شبابك » . فقال « مونك » متضايقاً :

— « دَعْ عنك كل هذا ، وهات الدليل على أنّى محتالٌ مزوّر ،

وعلى أن هذا الغلام أخى » . فقال « براون » :

— « لقد وقفتُ على الدليل منذ خمسة عشر يوماً فقط ... أنتَ تعلم أنّ لك أخاً ، وأنك تعرف هذا الأخ ، ولستَ تجهلُ أنّ والدك قد ترك وصيّةً بشأنه ، ولكنّ والدتك قد أخفت تلك الوصية ، وأخبرتْكَ بذلك وهى تموت . . . كان هناك غلام . . . وهذا الغلام قد أثار شكوكك منذ اللحظة الأولى التى رأيتَه فيها ، ورأيتَ الشبه بينه وبين والدك . . . ثم ذهبتَ إلى مكان مولده ، وحصلتَ على الدليل ، ورميتَ به فى أعماق النهر ... أفتُنْكِرُ هذه الوقائع أيُّها اللص المنافق المتوارى وراءَ الظلام ، المتآمر مع الأوباش واللصوص والأوغاد ، يا من كنت سبباً فى موت فتاة من عصابتكم تساويك ألفَ مرّة...أتتحدّانى بعد يا "إدورد ليفورد" ؟! »

فامْتُقع وجه « مونك » وخارتْ قُواه وقال :

— « لستُ أنا الذى قتلها ! » فصاح فيه « براون » :

— « أتذكر الشّبح الذى رأيته فى يوم من الأيام وأنتْ تحدّث شريكك فى الإثم اليهوديّ العجوز ؟ لقد كان شبحَ الفتاة الكريمة التى تسمّى "نانسى" فقد سمعتْ ما دارَ بينك وبينه من حديث ، وهى التى سمعتك مرّةً أخرى تقول لذلك المجرم العجوز إنك رميتَ الدليل على نَسَب الغلام فى أعماق النهر ... لقد حرّكتها الشّفقة بالغلام ورجعتْها إلى طريق الفضيلة ، ولكن صديقها الوحش قد كتمَ أنفاسها ، فأنت المسؤول عن

إزهاق روح هذه المسكينة ... » فصاح « مونك » مضطربًا :

— « لا . لا . لست أدرى شيئًا ممَّا حدَث ، ولا أعرف سبب قتلها . . » فقال « براون » مهدّداً متوعّداً :

— « السَّبب هو أنها باحت ببعض أسرارك ، أفستعدٌ أنت أن تبوح بجميع أسرارك ؟ » فقال « مونك » متخاذلاً :

— « نعم » . فقال « براون » :

— « أتقْبلُ أن تكتب اعترافك بخطّ يدك ، وأن تُشْهِد عليه الشهود ؟ » فقال « مونك » :

— « نعم أقبل » . فقال « براون » :

— « اجلس إذن إلى هذا المكتب ، وابدأ بالكتابة ، وحينما تفرغ من اعترافك فسوف أسير بك إلى حيث تشهد عليك الشهود . . . واذكر أنّ عليك واجبًا أعظم وهو أن تردّ إلى غلام برىء ميراثه الكامل . . . وأعتقد أنك لم تنس نصوصَ الوصيَّة ، فنفّذْها بحذافيرها ثم ارحل إلى حيث شئت من بلاد الله الواسعة » .

وما كاد « براون » ينتهى من كلامه حتّى اقتحم عليهما الباب الطبيب صديق أسرة « وردة » وهو يقول :

— « لقد قبضوا على القاتل قاتل الفتاة " نانسى " أرشد رجالَ الأمن إليه كلبُ المجرم فكان الأثر الذى تعقَّبوه فقبضوا عليه » . فقال براون :

— « واليهودىّ العجوز ؟ » فقال الطبيب :

— « يجدّ رجال الشرطة فى البحث عنه وسوف يعتقلونه لا مَحالة »

وخرج « براون » والطبيب من الغرفة وأقفلا على « مونك » الباب وأخذا يتشاوران ويتبادلان الرأى . . .

وبعد أيَّام ثلاثة ، استقلّ الطبيب و « أوليفر » والآنسة « وردة » وخالتها إحدى المركبات الخاصة فى طريقهم إلى مسقط رأس «أوليفر» ، فى حين استقلّ إليها السيِّد « براون » مركبة من المركبات العامة ، يصحبه رجل لم يصرّح باسمه . وكان «أوليفر» فى حال من الذّهول والاضطراب لـَزم معهما الصّمْت الطويل ، وشاطره ذلك الصّمتَ كلُّ ركاب المركبة ، وعندما وصلوا إلى المدينة التى وُلد فيها «أوليفر» اهتاجت الذّكْريات فى فؤاده ، فطفِقَ يحدّث الآنسة « وردة » ، ويدلُّها على ما يعرف من معالم المدينة : فهذا ملجأ البرّ الذى وُلدَ فيه ، وهذه دار رعاية الطفل التى عاش فيها ، وهذا حانوتُ صانع التَّوابيت الذى عملَ عنده وهذا وهذا . . .

وكان المساءُ قد بدأ يلفُّ الكوْنَ بردائه ، فوقفت المركبة عند أحسن فندق فى المدينة فنزلوا منها واحتلّ كلٌّ منهم غرفته فى الفندق . وقُبَيْل الساعة التاسعة ، وصل السيد « براون » فى صحبة رجل غريب فما كاد « أوليفر » يراه حتّى صاح صيحة الدّهَش فقد تذكر أنه رآه مرّة يرود حول المسكن الريفى الذى عاش فيه ناعمًا سعيداً فى صحبة الآنسة « وردة »

وأسرتها ، ويُطيل النظر إليه ، ثم غادرت الأسرة الريف إلى « لندن » فلم تقع عينه عليه بعد ذلك ، فحدجه الرجل ببصره ، وصوّب إليه نظرة مملوءة بالحقد والكراهية .

واجتمع القوم فى إحدى غرف الفندق ، وتصدّر السيّد « براون » فى المجلس ، وكان فى يده بعض الأوراق فقال يخاطب الجمع الحاضر :

— « إنّ علىّ مهمّةً شاقّةً يا سادة ، ولكن يجب أن أقوم بها ، ففى هذه الأوراق التى بيدى اعتراف هذا الرجل فى مسألة تهمّنا جميعًا ، غير أننى حرصتُ على أن تسمعوا منه ذلك الاعتراف » .

ثم وضع « براون » يده على رأس « أوليڤر » وقال يخاطب ذلك الرجل الغريب وما هو إلا « مونك » :

— « هذا الغلام هو أخوك ... هو الابن غير الشرعىّ لوالدك " إدون ليفورد " وللمسكينة " أنييس فامنج " التى ماتت بعد ولادته بدقائق . . أليس كذلك ؟ » فقال « مونك » وهو ينظر إلى « أوليڤر » الذى كادت تُسْمَع دقّاتُ قلبه :

— « نعم » . فقال « براون » :

— « وهذا الغلام مولودٌ فى هذه المدينة أليس كذلك ؟ » فقال « مونك » :

— « أجل فى ملجأ البرّ والإحسان . . . » ثم قال يخاطب الجمع الحاضر وهو يشير إلى الأوراق التى يحملها السيّد « براون » :

— « إن فى هذه الأوراق القصّةَ بحذافيرها فحسْبك ذلكَ » فقال « براون » :

— « نريدُ أن نسمعك تقصّها علينا » . فأذعن « مونك » وقال :

— « مَرِضَ والدى وهو فى " روما " فلحقتْ به أمى وصحبتنى إليه معها ، وكان الموت قد بدأ يدبّ فى جسمه فلم يعرفنا ، وتوفّى فى اليوم التالى ، وكان بين أوراقه ورقتان وضعهما فى ظرفٍ وعنونه باسم السيّد " براون " وأوصى أن لا يُرْسل إليه إلا بعد مماته ، فالورقة الأولى كانت رسالة إلى " أنييس " والثانية وصيّة » . فقال « براون » :

— « وماذا كان فى الرّسالة ؟ » فقال « مونك » :

— « اعتراف منه بأنه خدعها ولكنه ذكر لها أن هناك بعض الموانع كانت تحول دون زواجهما العاجل ، ثم طلب منها فى الرسالة أن لا تحقد عليه إذا مات ، وأن تغفر له جريمته ، ثم ذكّرها فى الرسالة باليوم الذى أهداها فيه حلية ذهبية على شكل قلب ، وخاتمًا نقش عليه اسمها الأول مؤمّلاً أن تمكّنه الأقدار من أن يضيف إليه اسم العائلة ، ورجاها أن تحتفظ بالخاتم والحلية وتضعهما دائمًا فوق قلبها » . فقال « براون » وقد رأى « أوليڤر » يشهق ويبكى :

— « وعلامَ احتوت الوصيّة ؟ » فالتزم « مونك » السكوت فناب « براون » عنه وقال :



– « احتوت أولاً على وصف الأشجان التى سببتها له زوجته الشرعية ، وعلى الأميال الشريرة التى لمسها فيك أنت ولده الوحيد الذى ربى على حقد والده وكراهيته ، وتضمنت ثانياً ميراثاً تركه لك ولوالدتك وقدره ثمانمائة جنيه فى السنة ، ثم قسم ثروته قسمين خص أحدهما بالفتاة "أنييس فلمنج" وخص الثانى بالولد الذى ستلده ، ونص على إعطاء المولود ذلك النصيب بلا شرط ولا قيد إن كان أنثى أما إن كان ذكراً فيعطى نصيبه عندما يبلغ سن الرشد ، على شريطة أن لا يكون قد لطخ اسمه بأية وصمة من وصمات العار والجبن والخيانة ، وإلا عاد الإرث كله إليك .. »
فقاطعه « مونك » قائلاً :

– « وقامت أمى بما تقوم به كل أم فى مكانها ، فقد أحرقت الوصية ، ولم ترسل الرسالة إلى صاحبتها بل احتفظت بها ... وهجر والد "أنييس" المدينة هو وأسرته وتوفى بعد قليل ، أما ابنته الكبرى فهربت قبل ذلك ببضعة أسابيع وطافت المدن والقرى مشياً على الأقدام . . . » وسكت « مونك » واستأنف « براون » الحديث قائلاً :

– « بعد عدة سنوات زارتنى والدة "إدورد ليفورد" أى والدة هذا الشرير الماثل أمامنا . . . وأخبرتنى أن ولدها هجرها وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، بعد أن سرق مالها وحليها وجواهرها ، وخسر كل ذلك فى القمار ، فمال إلى النصب والاحتيال والتزوير ، ومعاشرة اللصوص والسراق ،

وكانت مصابةً بمرضٍ خطير ومتحرّقةً شوقًا إلى لقاء ابنها ، فعثرنا عليه بعد جهدٍ جهيد، فرحلت معه إلى فرنسا » . فقال «مونك» متممًا الحديث :

— « ماتت هناك بعد عذاب شديد وآلامٍ مبرّحة، وقُبَيْل أن تلفظ أنفاسها، باحت لى بسرها وورّثتْنى حقدها الدفين على "أنييس" وولدها، وكانت مقتنعةً بأن الفتاة لم تنتحر ، وبأنها ولدت غلامًا وهو حىٌّ يُرْزَق ، فأقسمتُ لها قائلاً : لئن لقيتُه يومًا لأعذّبنّه عذابًا أليماً، ولألاحقنّه بما استطعت من قُوًى وجهد حتى أجعل منه لصًّا سافلاً حليفَ المنكرات والموبقات ، ولو أدّى بى الأمر إلى أن أُدْنِيه من حبل المِشْنقة ، فأقضى على روح تلك الوصيّة الزريّة . . . وها أنا ذا قد لقيته فى طريقى ، وبدأتُ عملى فيما نويت له بدايةً طيّبة ، وكِدْتُ أصلُ إلى أُمنيّتى ولُبانَتى لولا تلك الفتاة الثّرثارة التى تسمّى " نانسى " ».

ثم أخذ « مونك » يقذفُ من فيه الشتائم واللّعَنات ، فى حين اندفع « براون » يشرح للسّامعين الخطة التى اتّفق عليها « مونك » واليهودىّ العجوز . والتفت « براون » بعد ذلك إلى « مونك » وسأله قائلاً :

— « وكيف عثرتَ على الحلية والخاتم ؟ » فقال « مونك » :

— « اشتريتُهما من الرجل والمرأة اللذين حدّثتك عنهما . وأنت تعرف أنّى رميتُ ذلك الأثر فى أعماق النهر » .

فخرج « براون » من الحجرة وعاد بعد قليلٍ يدفع أمامَه السيّد « بمبل »

وزوجته ، فلما صارا فى وسط الحجرة قال لهما مشيرًا إلى « مونك » :

— « أتعرفان هذا الرجل ؟ » فقالا معًا :

— « كلا ! » فقال « براون » :

— « ألم يبتع منكما شيئًا قطّ ؟ أوَلَم يكنْ فى حوزتكما خاتمٌ وحليةٌ ذهبيّة على شكل قلب فاشتراهما منكما ؟ » فقالا معًا :

— « كلا . وألف مرة كلا » .

فخرج « براون » ثانية من الغرفة ، وعاد تصحبه امرأتان طاعنتان فى السنّ ، تكادان لا تقويان على المشى ، فما إن يقع نظرهما على زوجة « بمبل » حتى رفعت إحداهما يدها المرتجفة ولوّحتها فى وجهها وقالت :

— « لقد عُنيت بإقفال الباب يومَ ماتت العجوز " سالى " ولكنك لم تستطيعى أن تسدّى فتحاتِه، فسمعنا كلّ الحديث » . وأردفت العجوز الثانية قائلة :

— « وفى اليوم التّالى تبعناك إلى بنك الرهون فرأيناك قد سلّمت منه خاتمًا وحلية ذهبيّة .. نعم تبعناك ورأينا كلّ شىء ... وفضلاً عن ذلك فإن المسكينة " سالى " كانت قد أخبرتنا قبل ذلك بزمنٍ طويل ما أنهت إليها تلك الفتاة الصبيّة الجميلة ... أخبرتها أنها كانت تشعر باضمحلال قواها ، وبأنها لن تعيش طويلاً ، فكانت تنوى السَّيْر إلى حيثُ تموت على قبر الذى وَهَبها ذلك الغلام . . . »

فلم يسَعْ « بمبل » وزوجته إلا الإقرار ،وهما مستنكران خيانة « مونك » فسُمحَ لهما بالانصراف. وشكر « براون » للعجوزين الطاّعنتين فى السنّ شهادتهما الثمينة ، وأوصلهما إلى الباب مودّعاً ، ثم عاد وأمسك بيد الآنسة « وردة » وقال يخاطب « مونك » :

— « أتعرف هذه الآنسة ؟ » فقال « مونك » :

— « نعم أعرفها . إنها شقيقة "أنييس" : فبعد موت أبيها ، وهَرَب أختها الكبرى ، احتضنتها أسرة فقيرة من الفلاحين ، ثم لقيتها اتفاقاً هذه السيدة الحاضرة بيننا فأعجبت بها ، وطلبت إلى تلك الأسرة الفقيرة أن تنزل لها عنها وهكذا كان ...» فصاحت السيّدة الوقور مقتربةً من « وردة » :

— « هى عندى أعزُّ من ابنة شقيقة ، بل أعزُّ من نفسى ، ولن أفقدها ! » فقالت « وردة » :

— « لقد كنت لى يا سيدتى أمّاً بـرّةً رؤوماً ، فلن أنسى فضلك ما حييت ! » واقترب « أوليفر » من « وردة » وقال لها وهو يعانقها :

— « أمّا أنا فلم تكونى لى خالة فقط ، بل كنت شقيقةً عزيزةً حبيبة . . . »



الخاتمة

وجرت خاتمةُ أشخاص هذه الرواية على ما يقضى به الحق والعدل والإنصاف ، فحُكِمَ على « سيك » وعلى اليهوديّ العجوز بالشَّنْق ، قِصاصاً لهما على ما ارتكبا من آثامٍ وجرائم ، وعفت المحكمة عن الجاسوس « وليم » مكافأةً له على إرشاد الشرطة إلى مخبأ اليهوديّ العجوز ، ثم انتظم فى سلك الشرطة خادماً أميناً للأمن والقانون. وقَسا القدر على جميع من استخدمهم اليهوديّ العجوز فى تنفيذ أغراضه ، مِمَّنْ غفلت عنهم عينُ العدالة فكانت عاقبةُ أمرهم أوْخَمَ العواقب . أما الغلامان « جاك » و « شرلو » فقضيا فترةً من الزمن فى سجن الأحداث ثم خرجا منه وقد استقرّ فى ذهنهما أن الحياة الحرّة العاملة هى ما يرفعُ قَدْرَ الإنسان فى أعين نفسه والناس . فجدّا واجتهدا وكبرا فى ظلال الفضيلة والاستقامة والعمل الشريف .

واستنكرت إدارة الملجأ ما قام به « بمبل » وزوجته فطُرِدا منه ، وقاسيا الهوان والذلّ وشظفَ العيش سنوات طويلة ثم انتهى بهما الأمر إلى سكنى الملجأ لاجئَيْن ذليلين بعد أن كانا فيه المدبّرين صاحبى الأمر والنّهى والسلطان .

واضطرَّ « مونك » أن يقدّم إلى « أوليفر » نصيبه من ميراث أبيه ، غير أن « أوليفر » أبْقَى له نصفه ليمكّنه من العيش الحرّ السَّليم ، ولا سيَّما أنه كان قد بدّد نصيبه الخاص به ، فرحل إلى أمريكا محتفظاً باسم « مونك » المستعار ، ولكنَّه عاد هناك إلى سيرته الشرّيرة ، فقضى نَحْبَه فى أحد السُّجون .

وزُفَّت الآنسة « وردة » إلى الفتى « هنرى » ابن السيِّدة الوقور التى ربَّتها وكفلتها ، فعاشا فى ظلال تلك السيّدة الكريمة عيشة هنيئة سعيدة واختارا السُّكنى فى « لندن » وكان طبيب الأسرة يزورهم حيناً بعد حين ، ويقضى معهم سهرات جميلة . وكان سرورهم يبلغ منتهاه عندما ينضمّ إليهم السيّد « براون » ومعه « أوليفر » الذى تبنَّاه فيقضون جميعاً ساعاتٍ ممتعة تُخْفى هناءَتُها ما فى فؤاد كل منهم من ذكرياتٍ أليمة . . .

ونشأ « أوليفر » نشأةً صالحة ، وساعدته فضائلُه ومكارمُ أخلاقه وطيبُ عنصره ، على أن يكون مثالَ الشباب العاملين النَّاجحين . .